كتاب تاريخ السلطان سليم
خان بن السلطان بايزيد خان مع
قانصوه الغوري سلطان مصر
واعمالها

تأليف الشيخ احمد بن
زنبل الرمال المحلي رضي الله
تعالى عنه على التمام
والكمال والحمد لله
على كل حال
وبه نستعين
امين
م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم هذه رسالة مشتملة على غزوة السلطان
الاعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الامم صاحب السيف
والقلم خليفة الله فى العالم مولى ملوك العرب والعجم
فارس ميدان الشجاعه حارس بنيان الشهامه قاتل الفراعنه
والجبابره كاسر الاكاسرة والقياصره مكمل الدولة
العثمانية ممهد القواعد السلطانيه السلطان بن السلطان
السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان مع قانصوه
الغوري سلطان مصر واعمالها فكان خروجه من مصر فى
يوم السبت سادس عشر ربيع الأخر سنة احدى وعشرين
وتسعمائة وكان امراء دولته اولهم سودون العجمى امير كبير
واركماس امير سلاح وامير مجلس وسيدى محمد بن السلطان

الغوري

R 48 C 1175
949.6 : 962

الغوري امير اخور كبير وسودون الدواداري رأس نوبة النواب وانس باى حاجب الحجابة وقانصوه بن السلطان جركس وتقطباى نائب القلعة وقانصوه كرت وطومان باى دوادار كبير وتمر الزردكاش وجانبلاط ابو تريسين وثاني بك الخازندار وازدبك المكحل ويرزمك الناشف وابرك رأس الجلبان واقباى الطويل وبيبرس ابن عم السلطان وامير كرتباى الوالى والامير علان رأس القرانصة الشجعان والامير قانصوه الفاجر والامير قانصوه ابو سنه والامير قانصوه رجله فكان هؤلاء الاثنان وعشرون امير اصحاب الطبلخانات فى مصر لهم الامر والنهى والحكم مثل السلطان وكان كرتباى الوالى اعظمهم حرمة واقومهم كلمة لشجاعته وفروسيته ومقاومة الشجعان والابطال فى حومة الميدان وسياتى ذكر طرف لما كانوا عليه رحمة الله تعالى عليهم اجمعين آمين

ذكر النواب فى البلاد

وهم الكشاف فاول النواب نائب قطيه كان قانصوه رجله واما القدس الشريف وغزة والرملة وما هناك من الضياع فكان المتولى على جميع ذلك الامير دولتباى واما صفد وترابلس الشام وبيروت وصيدا واعمالها فكان النائب عليها الامير تمراز الاشرفى واما دمشق فكان نائبها اصلان بن بلاق واما حماه فكان نائبها الامير قنبردى الغزالى واما حلب فكان نائبها جانبردى وعنتاب نائبها يونس بن اقبية واما قلعة الروم فكان نائبها ابا يزيد وكانت اضنه وجميع بلاد مرعش واعمالها الى ديار بكر يحكم فيها علاء الدولة والى حين ينتهى الى ناحية الروم يحكم فيها محمود بن رمضان وكان علاء الدولة يحمل المال الى مصر من جميع حكمه وبلاده وهو الذى كان سبب

الفتنة بين السلطان سليم وبين الغوري وخيربك ايضا الى
ان حصل ما حصل من القتال بين الفريقين ان ربك هو يفصل
بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين واما الكشاف فكان
أسيوط فيها برسباى الاشرفى ومنف كاشفها قانصوه
العادلى والفيوم والبهنسا كاشفهما جانم الاشرفى ودمنهور
مع يونس البدوى والمحلة مع الماس وكان مشهورا بالظلم
واما الثغور المحروسة فكان نائب الاسكندرية قضابردى
ونائب دمياط على باى واما مشايخ العربان فى الصعيد الاعلى
فكان ابن عمر الامير على فى جرجا واولاد الاحدب فى الشرق
وشيخ عزالة حماد بن خبير فى الجيزة والامير حجازى بن بغداد
بالمنوفية وشيخ البحيرة كان الجويلى واما الغربية كان من
نواحى سنهور حسن بن مرعى وكانوا على هذا الترتيب فى زمن
الغورى رحمة الله عليهم اجمعين وكان فى الشرقية احمد بن
بقر وكان قليل الخير سيرته سيئة ونرجع الى خروج السلطان
الغورى من مصر فلما وصل الى غزة قام بها ثلاثة ايام فشكت
الرعايا للسلطان من نائب غزة فعزله عنها ورسم عليه وعنفه
على فعله وظلمه وزجره غاية الزجر وبعد ذلك رده اليها
لكونه ابن عمه فورد على السلطان مكاتبة وهو مقيم بغزة
من عند سيباى نائب الشام يذكر فيها الذى يعرضه المملوك
على المسامع العالية اعلاها الله تعالى وادامها ان العبد سمع
بان السلطان يريد السفر الى قتال ابن عثمان وان المملوك يقوم
بهذا الامر ويكون السلطان مقيما بمصر ويمد المملوك بالعساكر
المنصورة والذى يعلم به مولانا السلطان ان خيربك ملاحج
علينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين فرد عليه

السلطان

السلطان ها نحن قد جئناهم بانفسنا ثم امر بالرحيل بالجيوش
والعساكر وهم يموجون كالبحر الزاخر والسحاب الماطر
فرسانا كالعقبان الكواسر ولكن اذا انزل القضاء عمى البصر
فالقى الله تعالى فيهم الفتنة فكان كل من الاعيان يتمنى هلاك
السلطان حتى يكون هو السلطان فبهذا الموجب هلكوا اجمعين
ويبعثون على نياتهم ومن غريب صنع الله تعالى ان السلطان
الغوري كان له رمالا حاذقا فكان كل حين يقول له السلطان
انظر الى من يلي الحكم بعدي فيقول حرف السين فكان السلطان
يعتقد انه سيباي وكان كلما كتب سيباي للسلطان بما يفعله
خير باك نائب حلب من المكاتبات للسلطان سليم بانه معه
وانه ملاحي على ابناء جنسه ويحرضه على المجئ الى اخذ مصر من
الجراكسة والسلطان الغوري لا يقبل من سيباي نصيحة حتى
نفذ قضاء الله تعالى وحكمه وقدرته وكان ما كان ولم يتمكن
سيباي من ملاقاة السلطان الا على سعسع وهي قرية من
قرى الشام وحضر سيباي قدام السلطان وقدم تقدمة
عظيمة لها قدر وقيمة فشكره السلطان على فعله شكرا زائدا
بعد ان خلع عليه خلعة عظيمة ولم يخلع على احد من النواب
غيره وكل ذلك والسلطان معتقد ان الخيانة انما هي من
سيباي وما قصده الا اخذ السلطنة كما ذكر المنجم الرمال على حرف
السين ولا يظن ويخطر في فكره ان السلطان سليما يقدر
يدخل ارض مصر ابدا لما يعلم من شجاعة الجراكسة ولم يمكنوا
احدا من اخذ بلادهم وما دروا ان الارض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وكان السلطان
الغوري يعلم ان سيباي بطل من الابطال لا يخطر الموت
على باله فانه كان فارسا مناعا وبطلا شجاعا ذا عزم شديد

وباس شديد فكان السلطان لا يحسب لاحد حسابه واما خيربك
فانه لم يكن السلطان يحسب له حسابا لما يعلم من جبانته وعدم
شجاعته فأخذه من لا يكترث به وكان سيباى من مماليك السلطان
قايتباى وكان رجلا يعد برجال وهو الذى عمر المدرسة
التى بدمشق المعروفة بمدرسة سيباى وهى اذا اطلعت
من سويقة باب الجابية وانت طالب الى دار السعادة تكون
على يسارك ووقف لها الاوقاف ورتب لها الخيرات رحمة
الله عليه قال الناقل وهو الشيخ احمد بن زنبل الرمال المحلى
الجامع لسيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن
عثمان فان السلطان سليم كان له اخ اكبر منه يسمى السلطان
احمد وكان حاكم برصة وكان اخوه قورقود حاكم المغنيسا
والسلطان سليما قبل ان يتسلطن كان حاكم طرابزان ولكنه
كان ذا همة عالية فى طلب الملك والرياسة على اخوته فالهمه
الله تعالى زواج ابنة ملك التاتار خان ليكون ظهرا له فتزوجها
ثم تجرد بعد ذلك لاخذ الملك من ابيه لما سمع من الجواسيس
الذين كانت تأتيه بالاخبار ان اباه السلطان بايزيد ضعيف
على موت وانه ارسل لولده احمد يحضره ليقلده الملك من بعده
فخاف احمد من اخيه سليم لما يعلم من طلبه الملك لنفسه فتأخر
من المجى فجرد سليم العساكر على ابيه فلما سمع ابوه ذلك اخذته
الغيرة وامر بالخروج لملاقاته فخرجت العساكر ووقع الحرب
بين الفريقين فكانت الكسرة على السلطان سليم فانهزم وأُخذت
زردخانته بجملتها فهرب الى الكوفة فدخل عند رجل يقال له
كمال اغا وهو دزدار القلعة فاضافه ومكث عنده مدة
أيام فشكى له السلطان سليم مما جرى له وما ذهب منه من
المال والرجال وهو متحير فى امره وقد قصد اخذ الملك من ابيه

قبل

قبل ان يعطيه لاخيه احمد فلم يصح له ذلك فقال له كمال اغا
عندنا من مال ابيك شئ كثير متحصل وكان نريد ان نرسله له
فخذه وتقوى به ففعل كما قال له كمال اغا وجمع له عسكرا اكثر
من الاول وكان السلطان سليم لا يتوقف في جمع العسكر
لا على رومي ولا على عجمي بل كل من اختار ان يكون من عسكره
قبله ويعطيه الجامكية ويجعله من عسكره فجمع عسكرا كثيرا
وجرد على ابيه ثانيا يريد القسطنطينية وكانت عساكر ابيه
كلهم مالوا الى السلطان سليم لما يعلمون من علو همته واما
ابوه السلطان بايزيد فانه كان رجلا مباركا من اولياء الله
تعالى لا يحب العظمة ولا التجبر وكان رأس عسكره اغاة
الينكجرية يونس اغا فلما وصل الخبر الى السلطان بايزيد بان
ولدك سليما جرد عليك ثانيا امر العسكر بالخروج لقتال
ولده فلم يطعه احد من عسكره فجاء السلطان سليم الى ان وصل
الى مدفن ابي ايوب الانصاري رضي الله عنه فدخل الوزير
الاعظم وكان اذ ذاك فرهاد باشا على السلطان بايزيد واخبره
بذلك واعلمه بان العساكر كلها مالت الى السلطان سليم ويبغضونك
لما يعلمون من تعففك عن العصمة الملوكية وانت تعرف ما يترتب
على ذلك فامره السلطان بايزيد ان يقول لهم السلطان يولي
عليكم ولده احمد فابوا ذلك وقالوا ما نريد الا سليما كلمة
واحدة فخرج السلطان بايزيد يريد الكوفة بماله وعياله
وان يقيم هناك الى ان يموت ودخل السلطان سليم الى
القسطنطينية فجلس على تخت الملك فلم يسافر ابوه الا يومين
ومات رحمة الله عليه في سنة ٩١٨ واما اخوه السلطان احمد
فانه لما ارسل خلفه ابوه ليقلده الملك جاء الى ان وصل اسكدار
فلم يجسر ان يدخل القسطنطينية خوفا من اخيه ومن العسكر

لانهم على غرض السلطان سليم فلما تولى السلطان سليم ارسل
لاخيه احمد خلعة ورده الى مكانه وايضا ارسل خلعة الى اخيه
قورقود الى مملكته وهى مغنيسا بر اناضول واستقر هو في
الملك ثم ارسل خلف كمال اغا الذى كان بالكوفة وجعله اغاة
اليكنجرية ويونس اغا جعله وزيرا وجعل فرهاد باشا باشة
روم ايلى ثم امر بقتل اخوته واستقل هو بالملك فهرب اخوه
قورقود الى مصر واستجار بالغوري فاجاره فارسل السلطان
سليم يطلبه من الغوري فأبى ان يمكنه منه فاشتدت العداوة
بين الغوري وبينه حتى وقع ما وقع قال الراوى ومما وقع
بينهما من شدة العداوة ان السلطان سليما لما غزا على شاه
اسماعيل سلطان العجم وجاء بالعساكر من على البيرة وكان
نائبها يسمى علاء الدولة من طرف جناب السلطان الغوري
فأمر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا على عسكر السلطان
سليم شيأ مطلقا من الماكل ولا من غيرها فمات اكثر الدواب والناس
من شدة الغلاء وكان هذا سبب الحرب بين الغوري وبين
السلطان سليم وحصن علاء الدولة البلاد كلها والحصارات
والابراج فلما جرى للسلطان سليم ذلك عرض على وزرائه
ذلك وحصل له من الغم ما لا مزيد عليه وكان السلطان سليم
حاد المرارة صعب الخلق فاراد ان يأمر العسكر بالحملة على
تلك النواحي ويحاصر مرعش فاشار وزراؤه عليه ان يرسل
يعلم بذلك الغوري فامر بكتابة مرسوم الى ملك مصر قانصوه
الغوري يخبره بما فعل علاء الدولة فاجاب الغوري بان علاء
الدولة عاصي امري فان قدرت عليه فاقتله وخلع على قصاده
وارسلهم ثم كتب الغوري مرسوما وارسله خفية لعلاء الدولة
يشكره على ما فعل ويغريه على قتال السلطان سليم ولا يمكنه من

شئ ابدا وكان قصد الغورى القاء الفتنة بين الاثنين رجاء ان
يقتل احدهما او كلاهما فيكتفى شرهما فانه كان يعرف شدة باس
كل منهما فقوى قلب علاء الدولة على قتال السلطان سليم
واما السلطان سليم لما قرأ جواب الغورى علم بفراسته انه
خديعة له فتحملت نفسه من الغورى غاية التحمل فكان ذلك
سببا لاثارة الفتنة بينهما حتى وقع ما وقع كما هو المشهور
ثم سافر السلطان سليم الى ملاقاة شاه اسماعيل ووقع
الاتفاق بينهما بان يبطل النار ويقاتل بالسيف والعود فلم
يثبت السلطان سليم غير ساعة وولى عسكره منهزما لان الروم
لا قدرة لهم على ملاقاة الفرس من غير نار فعند ذلك امر اغاة
اليكنجرية ان يرموا بالنار فما كان الا ساعة وانهزم شاه اسمعيل
فان النار لا يطيقها احد فاخذ السلطان سليم ما وجد فى
اوطاق العجم وانثنى راجعا منصورا يريد قتال علاء الدولة
واما علاء الدولة فانه جمع جيوشا كثيرة والتقى الجمعان وكان مع السلطان
سليم بن خا ابن شهسوار وكان شهسوار هو الملك والحاكم على تلك
الديار وهو اخو علاء الدولة فلما قبض على شهسوار بالحيل
التى عملت عليه شنق على باب زويلة بمصر فى زمن قايتباى
على يد الامير يشبك الدوادار كبير والقصة مشهورة ثم اخذ
علاء الدولة الحكم بعده وكان لشهسوار ولد اكبر اولاده
فهرب الى السلطان سليم فما زال عنده حتى وقع هذا الحرب
مع علاء الدولة واصطف الفريقان للقتال وخرج ابن
شهسوار الى الميدان بين الجمعين باذن من السلطان سليم وقال
من عرفنى فقد كفى ومن لم يعرفنى فانا ابن شهسوار ابن من
ربى فى انعام ابى اين المحبون لى ولوالدى فليأتوا تحت سنجق
من حمى من عدو ولا بد لكل الناس من يحبه ويبغضه فارتج عسكر علاء الدين

وافترق منه بعضه فمن كان يبغض علاء الدولة مالوا الى ابن شهسوار فهاتم
نحو ساعة حتى عقل علاء الدولة وغالب اولاده وقطعت رؤوسهم
وجاؤا بهم الى السلطان سليم فارسل بهم الى الغوري فلما
راهم حس قلبه بزوال ملكه لما يعلم من اختلاف عسكره
عليه كما وقع لعلاء الدولة فان الملك ليس هو ملكا الا بالعسكر
فاذا انحرف عليه عسكره ضاع ملكه ثم ان السلطان سليما
طمعت ماله في اخذ مصر ثم توجه الى ادرنه ثم استشار مع
الوزير الاعظم وهو احمد باشا ابن هرسك وبعده بيري باشا
فقال ابن هرسك للسلطان سليم نحن تصادمنا مع عسكر مصر
في زمن ابيك وكنت انا باش العسكر وكسرونا اشد كسرة وقبضوا
علي ودخلت مصر اسيرا حتى وقفت بين يدي السلطان قايتباي
فمن علي باطلاقي وعفى عني عفى الله عنه وقد حلفت له ان لا
اسحب في وجه القبلة سيفا ابدا وصدقه على ذلك بيري باشا
ثم بعد ثلاثة ايام امر السلطان سليم بعزل الاثنين ثم سار
قاصدا عسكر مصر فلما وصل الى مدينة زملطي اقام ينتظر
الاخبار فلم يأته احد

ذكر ارسال القاصد من السلطان سليم الى الغوري

فامر السلطان سليم بارسال قاضي الى الغوري وكان اسم
القاضي زيرك زاده وكان اعرج فما زال حتى وصل الى حلب
فرأى اوطاق الغوري خاليا من العسكر ما فيه الا نحو الف او
الفين لانهم كانوا كلهم دخلوا الى مدينة حلب واخرجوا الناس
من بيوتهم وسبوا حريمهم واولادهم واذوهم الاذى البليغ
وكان ذلك سببا لقيام اهل حلب مع السلطان سليم على الجراكسة
لشدة ما حل بهم من الضرر منهم فلما بلغ الغوري بانه جاء
قاصد من عند السلطان سليم اذن له فتمثل بين يديه وتأدب

في غاية الادب فرحب به وساله عن السلطان سليم فقال له انا
هذا ولدك وتحت نظرك فقال له الغوري لولا انه مثل ولدي
ما جئت من مصر الى هنا باهل العلم جميعا حتى نصلح بينه وبين
اسماعيل شاه ثم اجزل عطاءه وصرفه ثم امر الغوري بالخروج
الى الحرب فخرج جميع العسكر واودعوا جميع اموالهم عند اهل
حلب بعد ان كدروا عليهم غاية التكدير واذوهم غاية الاذى
فلما خرجوا من عندهم دعى عليهم الكبير والصغير والغني والفقير
لما حصل لهم من ضررهم فلما استقر الغوري في اوطاقه

ذكر ارسال الغوري الى السلطان سليم قاصدا

امر بارسال قاصد للسلطان سليم فشاور اكابر دولته فاقتضى
رأيهم ان يرسل رجلا من اهل العلم والدين ليتكلم بينهما بالمعروف
رجاء لحقن دماء المسلمين فلم يفعل وامر باحضار الامير مغلباي
دوادار وكان رجلا فاضلا قادرا على رد الاجوبة واقامة الحجة
فقال له الغوري جهز نفسك واخرج اكشف لنا خبر اهل الروم
وما هم عليه واعط هذه المكاتبة الى ملكهم ثم امر عشرة من خيار
العسكر بالتوجه مع مغلباي الى عسكر السلطان سليم وهم
ملبسين بالملابس الفاخرة كل من رآهم يتعجب في خلقهم وحسن
خيلهم وهندامهم وهم كالعرائس واصطفوا صفا واحدا فلما
دخلوا ووقفوا بين يدي السلطان سليم من غير اطالة نظر اليهم
مليا وامتلأ من الغيظ ثم قال للامير مغلباي يا مغلباي أستاذك
ما كان عنده رجل من اهل العلم يرسله لنا وانما ارسلك بهؤلاء العشرة
يرعب بها قلوب عسكري ويخوفهم برؤية اجناده ولكن انا اكيده
بمكيدة اعظم من مكيدته ثم امر برمي رقبة مغلباي وجماعته
وعيط من صميم قلبه بجلاد فارتجفت قلوب الحاضرين لذلك
فقام الوزير يونس باشا وقبل الارض بين يديه وقال الرسول

لا يقتل وليس له ذنب فقال لابد من ذلك فقال الوزير فان
كان ولابد فابق على كبيرهم مغلباى فأمر بحبسه ورمي رقبة
العشرة قدام اوطاقه واحدا بعد واحد وهو ينظر اليهم وحبس
مغلباى بقلعة رملطو يومين ثم احضره وحلق ذقنه والبسه
طرطورا وركبه على حمار اعرج معقور وقال له قل لاستاذك
يجتهد جهده وها انا حضرت اليه كالبرق الخاطف والرعد
القاصف ولم يقرأ مكاتيب الغوري لشدة غيظه لانه لما رأى
مغلباى والعشرة الملبسين بالحديد المانع فهم بالفراسة انه
ما ارسل هؤلاء الا لتخوف عسكره من شدة باسهم وفرسانهم فلما
رجع مغلباى للغوري على هذه الصفة عسر عليهم ذلك واقامت
نفوسهم على قتال السلطان سليم بعدما كانوا يظنون انهم انما جاؤا
للصلح بين شاه اسماعيل والسلطان سليم ثم امر الغوري بان
يخرج العسكر من مدينة حلب الى اوطاقه ويتهيؤا للقتال وامر
الامير كرتباى الوالي بان يكشف خبر السلطان سليم وعسكره
ويرجع على الفور ليمشي عليه ويبادر للحرب فلما وصل كرتباى الى
قيصرية وجد اهلها قد قفلوا ابوابها وتأهبوا القتال اهل مصر
لما بلغهم ما فعلوه في حلب واهلها من اخراجهم من اماكنهم
ونهب اموالهم وغصب نسائهم وبناتهم ثم وجدوا يونس
باشا نائب عنتاب عزل حريمه وماله وهو معول على الرحيل الى
السلطان سليم وقد قلب على ابناء جنسه ومال مع الروم فرجع
كرتباى الوالي واخبره بأن قيصرية وعنتاب عصوا علينا وارادوا
قتالنا وما لوا مع السلطان سليم وجاءنا الخبر بأن طلائع عسكره
قد اقبلت فلما تحققنا ذلك عطفنا راجعين فارتج عسكر مصر
لذلك ووقع فيهم الخلل فعند ذلك انتبه الغوري من ساعته
وجمع الامراء والاعيان وتحالفوا على ان لا احد منهم يخون صاحبه

ويكونون

ويكونون على قلب رجل واحد ويقاتلون عدوهم بعد ان كان
غالب العسكر مايظن الا الصلح بين السلطان سليم وبين
شاه اسماعيل واما يونس نائب عنتاب فانه ندم على
فعله مع كرتباى الوالى وقال فى نفسه ربما تكون النصرة لهم
فلا آمن على نفسى ولكن اجعل لى معهم وجهًا وركب من ساعته
الى ان تمثل بين يدى الغورى وزعم ان السلطان سليما قبض
عليه وانه هرب منه وجاء الى مولانا السلطان مساعدا له
على عدوه فلم تنطل حيلته على السلطان ثم امر بتوسيطه فى الوقت
والساعة فوسط والامراء والاعيان كلهم مجتمعون فقام من
بينهم الامير سيباى نائب الشام وقبض على خيربك نائب حلب
وجره من طوقه بين يدى السلطان الغورى وقال يا مولانا
السلطان اذا اردت ان الله ينصرك على عدوك فاقتل هذا الخائن
وكان خيربك فى يده كالشاة بين يدى السبع وهو يجره فقام الامير
جانبردى الغزالى وقال يا مولانا السلطان لا تفتن العسكر
وتبدأ فى قتال بعضهم بعضا وتذهب اخباركم الى عدوكم ويزداد
طمعه فيكم وتضعف شوكتكم والرأى لكم وتأخر فى مكانه وهذه
مكيدة من الغزالى والا كان خيربك قد هلك ولكن اذا اراد الله
تعالى بأمر بلغه وللحى ماله قاتل فأمرهم السلطان بأن يتحالفوا
ثانيا وان لا يخون منهم احد والخائن يخونه الله تعالى وعليه لعنة
الله ثم امر السلطان ان ينادى فى حلب بالرحيل منها بالعسكر
لقتال السلطان سليم وان يتأهب كل احد ويستفيق لنفسه
وكان ذلك فى يوم الجمعة الثانى من رجب سنة اثنين وعشرين
وتسعمائة وكان له مواكب حتى رجت الارض وليس الخبر كالعيان
وكان الجلبان ثلاثة عشر الف مملوك كلهم مشتروات الغورى
ولا واحد منهم الا ويعرف سائر انواع الحرب والفروسية فانه كان

اجتهد في تعليم الجلبان وكان قصده ان ينشئ له عسكرا من مماليكه
مشترواته ويقطع القرانصة وهم مماليك الملوك الذين قبله
وكان يحسب حسابهم خوفا من ان يمكروا به كما فعلوا بمن قبله
وكان آخذا حذره ولكن الحذر لا ينفع من القدر والقاعدة
المشهورة من طلب جله فات كله وكان معه الاربعة الائمة من
المذاهب الاربعة وخليفة سيدى احمد البدوى وخليفة سيدى
ابراهيم الدسوقى وخليفة سيدى احمد الرفاعى وخليفة سيدى
عبد القادر الجيلانى وكان معه المؤذنون الدواخل والوعاظ
وكان له نظام عظيم فانخرم ذلك النظام وانتكست تلك
الاعلام ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

ذكر التقاء الجمعين

ولما التقى الجمعان فى مرج دابق وكان فى اول الجيش امير كبير سودون
العجمى واركماس امير سلاح والخشبائ امير مجلس وكان امير اخور
سيدى محمد بن السلطان الغورى اقام فى حلب بأمر والده وكذلك
دوادار سكين ماجتم الاشرفى ومن كان فى مقدمة العسكر سودون
الدوادارى رأس نوبة النواب وانسباى حاجب الحجاب وقانصوه
بن السلطان جركس وكان من الابطال وتمر الزردكاش
وجانبلاط ابو ترسين وتانى بك الخازندار وازبك المكحل وبيبرس
بن عم السلطان وباتوا تلك الليلة على غير حرب ولكن لم يهنأ
لاحد منهم نوم من مكر بعضهم لبعض

وكان ابتداء الحرب يوم الاحد المبارك

الثالث والعشرين من رجب سنة ٩٢١ فلما اتضح النهار ركبوا كالبحر
الزاخر فاذا صفوف العثمانية قد بانت صفا بعد صف خارجا
عن الوصف والاعلام الملونة من اليسار والميمنة وهم سائرون
كالبحر السيال والمحيط الميال وقد رتبوا الصف من كل طرف فاذا

طير من الطرف الكبير الذى فيه السلطان سليم مدفعا كبيرا كانه البرق
الخاطف والرعد القاصف تزلزلت منه تلك الصحرا وطلع دخانه
كالجبال الزرقا فكان اول من بادر العثمانية بالحرب من طائفة
الجراكسة اصلان ابن بداق نائب حمص اخذ قنطاريته
بيده واطلق عنان جواده وصار يطعن فى الفرسان يمينا وشمالا
فلما رأى الامراء فعل اصلان ابن بداق فى حملته اخذتهم الحمية
فحمل الامير سيباى نائب الشام ثم حمل امير كبير سودون العجمى
ومماليكه خلفه نحو الالف ملبسين ثم حمل الامير جانبلاط ابو سيين
ثم الامير علان دوادار ثانى ثم حمل قانصوه ابن السلطان جركس
ثم حمل كرتباى الوالى وكان فارس المنايا والموت الزوام فلله
دره من شجاع كان فريد عصره ثم حمل تمر الزردكاش ويخشباى
امير مجلس والامير انس باى حاجب الحجاب والامير قنصوه كرت
والامير تانى بك الخازندار والامير تانى بك النجمى والامير سيبرس
ابن عم السلطان الغورى والامير قانصوه ابو سنه والامير
الفاجر والامير خير بك المعمار والامير جانبردى نائب بيروت
والامير جانبردى الغزالى وخير بك نائب حلب وكلاهما كان
رأس المتعصبين على الغورى والامير تمراز نائب ترابلس وحملوا
جملتهم حملة واحدة وصادموا الروم ومالوا فى القتال والروم
الاغرون لاقوهم كالاسد الدخال قال الشيخ احمد بن زنبل المحلى
ولم نر فى التواريخ القديمة والحديثة وقعة مثل هذه الوقعة
ولا اجتمع فيها مثل هذين العسكرين ولا اكثر عددا قال ولم يقاتل
فى هذا اليوم من الجراكسة اكثر من الفى فارس وهم الامراء الذى
قدمنا ذكرهم واتباعهم واما جلبان الغورى الذين هم
مشترواته فلم يتحركوا من مواضعهم ولم يهزوا رمحا ولا جذبوا
سيفا وسبب ذلك ان الله تعالى لما اراد ازالة دولتهم اوقع فيهم

الخلف لامر يقضيه وحكم يمضيه وعلى ما قيل ان السلطان
الغوري امر بان اول مرة يخرج للحرب القرانصة لكونهم
اعرف بالحرب من الجلبان وكان قصده ان ينقطع القرانصة
ليكتفي شرهم ويصفو له الوقت فانه كان يحسب حسابهم خوفا
من مكرهم فامر بتقديمهم للحرب واخر جلبانه فعلموا مكره
لما راوه واقفا هو وجلبانه لم يتحرك منهم احد عن موضعه
فتغيرت نياتهم عليه وقالوا له نحن نقاتل بانفسنا مع النار
وانت واقف تنظر الينا كالعين الشامتة ما تامر احدا من مماليكك
يخرج للميدان فكان العسكر كله مختلفا في بعضه مفسود
النية ليس لهم راى يرجعون اليه ولا تدبير يقفون عليه
بل كل من تكلم منهم كلاما يقول الاخر بضده فمن ذلك انخرم نظامهم
واما الامراء الذين تقدم ذكرهم نحو الالفين هم ومن يلوذ
بهم اعتمدوا على الله تعالى في حملاتهم واصفوا نياتهم وصدموا
الروم وضرب الروم بالمدافع والبندقيات حتى صار النهار
كالليل الحالك من كثرة الدخان والغبار من حوافر الخيل لانهم
كانوا يقاتلون من قلب رجل واحد ونيات متفقة ليس لاحد
منهم في قلبه غل ولا مكر ولا حسد لاحد وهذا احسن ما يكون
لمن يريد النصر ولقد اجاد القائل اذا اراد الله بقوم خيرا وفق
بينهم واذا اراد الله بقوم شرا فتنهم واوقع الخلف بينهم
ومن اعجب ما يكون من العجب ان هؤلاء القوم القريبين من الالفي
فارس المتقدم ذكرهم من الجراكسة يقاتلون قتال الموت في نحو
مائة وخمسين الفا من الروم والترك ما بين الوف مشاة ومثلهم
خيالة من عسكر الروم ثم حطموا عليهم حطمة واحدة فبينما
هم كذلك الا والسلطان سليم ربح حصانه من قلب الصف الكبير
حتى وصل الى الصف الوسطاني وفي يده سيف عمر بن الخطاب رضي

الله

الله عنه وصاح على عسكره هكذا تعاركون قدامى مع عدوى
وعيط على الباشات فلما نظر الروم الى ذلك ردوا على الجراكسة كانهم
اذا سال بعرض الوادى فترلجع الجميع واطلقوا المدافع والبندقيات
وحملوا على الجراكسة وعيطوا الله الله فكانت الكسرة على الجراكسة
وطيروا الجراكسة والعربان والمشاة مثل القطر فى الثرى وصار
النهار عليهم مثل القيامة الكبرى وكان يجى كل مدفع على نحو
خمسين او ستين او مائة نفس فصارت تلك الصحراء كالجزرة
من الدماء وما زال الروم والسلطان سليم سائرين حتى جاؤا
الى صف الغورى فرجع خيربك والغزالى مع من انهزم من الجراكسة
حتى دخلوا وطاق الغورى ونادوا باعلى اصواتهم الفرار الفرار
فان السلطان سليما احاط بكم وقتل الغورى والكسرة علينا
واننى طالبا حلب فتبعه الجلبان وتشتت العسكر وظنوا ان
السلطان قتل كما قال خيربك وانما فعل ذلك بغضا ومكيدة مع
الغورى والسلطان الغورى واقف مكانه وحوله بعض الجلبان
القريبين منه واما البعاد عنه فانهم ظنوا انه قتل فانهزموا مع
خيربك قاصدين حلب فلما علم الغورى بما جرى لعسكره من التشتت
صار ينادى عليهم باعلى صوته يا اغوات الشجاعة صبر ساعة فلم
يلتفت اليه احد منهم وكان امر الله قدرا مقدورا وكل ذلك
بغضا منهم لسلطانهم فانه كان يريد ان يقطع القرانصة شيئاً
فشيئاً ثم بستقل هو بجلبانه ويصفى له الوقت والسلطنة ولقد
قال اهل المعرفة من طلب جله فاته كله ولا تعاند تغلب لوانك
السلطان فتقدم الامير سودون العجمى امير كبير وقال له يا مولانا
السلطان اين جلبانك اين خاصيتك هكذا عملت بنا ولا زلت
قائما فى حظ نفسك حتى اهلكت نفسك واهلكتنا معك ولكن
القيامة تجمع بيننا وبينك وسنقف بين يدى مولانا سبحانه وتعالى

يحكم بيننا بالعدل ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ثم
التفت عن يمينه فوجد الامير سيباى والامير اقباى الطويل والامير
علان والامير صلان بن بداق ومن يشبه هؤلاء من القرانصة
الاعيان وهم واقفون متجهزون فان جيشهم انكسر قهرا وما عسى
ان تقاتل مائة نفس في مائة وثمانين الف نفس ولكنهم مع قلتهم
اوقفوا هذا الجيش العظيم ولم يقدر احد منهم ان يتقدم ثم عيت
هذه الطائفة القليلة من الضرب والقتل والكثرة تغلب الشجاعة
وما زال الغوري حتى بقي وحده وخلفه حامل السنجق امير اللواء
وكان رجلا كبير السن من مماليك اينال الاجرود فمن شدة ما حصل
للغوري فانه انكسر قهرا ووقع على الارض مغشيا عليه

ذكر قطع راس السلطان الغوري مع السلطان سليم

قال فلما وقع السلطان الغوري على الارض رمى حامل السنجق
الرمح واخذ القماش المطرز وكان يساوي ثلاثة الاف ذهب فقال
الامير علان لاقباى الطويل ما ترى في امر السلطان قال له قل ما
عندك قال ان نحن تركناه ورحنا وخليناه ياتي العدو فيقتلونه
وياخذون راسه يطوفون بها جميع بلاد الروم قال فما الراى قال
الراى نقطع راسه ونرميها في هذا الجب والجثة بلا راس لا يعرفها
احد قال نعم الراى فامر الامير علان عبدا من عبيده فقطع راس
السلطان الغوري ورمى بها في جب هناك ثم ولى الامير علان
الى ناحية حلب واما الامير اقباى الطويل فانه طلب ناحية العجم
واقام بها الى ان مات واما الامراء الذين التهوا بالقتال مع الروم
فانهم فاض عليهم بحر المنايا وزاد وابلتوا بعساكر ملات
السهل والواد واجتمع عليهم ذلك الجمع الكثير وخاضت خيولهم
في بطون القتلى فقاتلوا قتال من قطع من الدنيا اياسه فقصدهم
الرماة بالبندق فوقع الامير سيباى والامير سودون العجمي واما الامير

قانصوه

قانصوه بن السلطان جركس فانه لازال يضرب بالسيف حتى
خرق عسكر الروم وطلع من ذلك الجانب على حمية فلما خلص
شم الهواء وردت روحه اليه بعد ان كان ايس من الحياة والف
حسنة لرجل خرج من بين الوف ولكن اذا جاء امر الله قضى
بالحق ولا راد لله فيما قضى فوقع فى نهر هناك ينبت فيه العرقسوس
فالتفت على قوائم الفرس فغرق وكانت عسكر الروم تنظر
اليه على بعد فلما رأوه فى هذه الحالة طمعوا فيه واحاطوا به
فقبضوه وعروه من الملبس فقطعوه بسيوفهم واما الامراء
فغالبهم تشتت فى البلاد وغالبهم قتل وانهزمت تلك الجموع
فتمكن عسكر السلطان سليم منها وطاق الغورى وأخذوا
كل ما فيه وكان شيئا يفوق الوصف من الذهب والفضة والقناطير
المقنطرة ومن البرق والملبوس والتحف التى جمعتها الملوك السالفة
ذهبت كلها ونهبت فى يوم واحد وذلك بالنسبة لما ابقاه
السلطان فى قلعة حلب وما اودعته الامراء والاجناد عند اهل
حلب وهو شئ لا ينحصر قليل جدا ومما نقل ان السلطان الغورى
لما خرج لملاقاة العثامنة اخذ معه مائة قنطار ذهبا دنانير
ومائتى قنطار فضة انصافا وكان قصده ان يجعل ذلك
نفقة للعسكر ونوى انه لا يزال ذاهبا حتى يصل اسلانبول
ويأخذها من يد السلطان سليم وسبب ذلك ان السلطان
سليما ارسل له كتابا على سبيل النصيحة وغالبه تهديد كالسم
فى الدسم ومن جملة ما فيه انه قال ان لم ترجع عما انت فيه
من الظلم والعناء على المسلمين والا جئتك بعسكر من الروم
واخرب مصرك عليك فكان هذا الكلام من جملة التسبب
المحرك للغورى على خروجه لحرب السلطان سليم فارسل فى
الجواب انا لا احوجك للمجئ الينا ولكن تأهب للقاء الابطال

وتنظر كيف تفعل الرجال وصدق في قوله لانه افحم قلوب عسكره
واهلك غالب الامراء من القرانصة فكرهته العساكر كلها
وما خرجوا معه الا وكل منهم يتمنى ان لا يرجع الى مصر وكان
هذا من سوء تدبيره وكل ذلك حتى يجري القضاء والقدر
قال الراوي ومات السلطان سليم في مرج دابق ثم اصبح وامر
ان تعد القتلى من الفريقين فوجدوا الذي قتل من الجراكسة
الف نفس واكثرهم من المدافع والبندقيات والذي قتل من عسكر
الروم اربعة الاف ثم وجد في القتلى رجل عظيم من الجراكسة
وعليه من الملابس الفاخرة ما يناسب الملوك وعليه من الهيبة
والوقار ما لا يوصف ووجهه يتلألأ نورا وقد جاء مضروب
نزان اخذ فخذه فجئ ببعض من يعرف الجراكسة فوجده سودون
العجمي اميرا كبيرا فامر به السلطان سليم فغسل وصلى عليه وامر
بدفنه فكان ترابه في زاوية هناك تسمى زاوية الشيخ ابي النور
القاري واما ما كان من امر الجراكسة فانهم لما وقعت عليهم
الكسرة نهب بعضهم بعضا وصار كل انسان منهم ياخذ ما قدر
عليه وكل من كان له عدو وقدر عليه قتله ولكل شئ آفة من
جنسه وانظر الى قوله تعالى ولا تنازعوا فتفشلوا الاية *
وقوله تعالى واذا اردنا ان نهلك قرية الاية وقوله تعالى
واذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ثم ذهب غالب العسكر
قاصدين الى حلب فمنعهم اهل حلب لشدة ما قاسوا منهم حين
مجيئهم مع الغوري فتشتت شملهم وذهبت حميتهم وانكسرت
شوكتهم بعد تلك القوة والمنعة العظيمة والباس الشديد
وكان سبب سعادة اهل حلب من هذه الوقعة فانهم كانوا
اودع عندهم الجراكسة جميع اموالهم وخرجوا على جرائد الخيل
فطمعت فيهم اهل حلب وصدوهم عن الدخول لاجل ذلك ولما

خيربك فانه دخل حلب واخذ سيدى محمد بن الغورى وكان ابقاه ابوه على خزانته واموالة بقلعة حلب فاخبره بأن شهسوار نازل على جيلان بعشرين الف فارس وهو قاصد اخذك واخذ حلب فقال سيدى محمد فما الرأى يا امير خيربك قال الراى ان تنادى فى العسكر بالرحيل الى مصر ويجتمع اليك ما شئت من العسكر وتكون ملك مصر موضع ابيك وانا مساعدك فى ذلك فصدقه فى ذلك ونادى فى حلب بالرحيل الى مصر ومن له رغبة فى المسير الى مصر فليتبعنا فخرجت الناس على وجوههم وتركوا اثقالهم واموالهم واختاروا سلامة الروح وكانت مكيدة وخرجوا من حلب كالهاربين وفعل ذلك خيربك حتى يأخذ حلب للسلطان سليم من غير حرب وكان الامر كذلك فانه ارسل الى السلطان يخبره بما فعل وانك تسير فى هذا الوقت الى حلب فانها خالية من العسكر المصرى واما عسكر حلب فمن اطاعنا ابقيناه فجاء السلطان سليم بموكبه ودخل حلب من غير حرب واطاعته الرعايا والعساكر فملكها وأخذ الاموال التى وجدها ونهب الغالب وتلاشى امر ابن الغورى وما دخل مصر الا فى اسوء الاحوال واذا اراد الله بأمر بلغه قال الراوى فلما خرج ابن الغورى من حلب قصد دمشق الشأم فخرجت عليه العربان فنهبت اثقاله واثقال من معه ومن قدروا عليه ولولا الامير ابرك رأس الجلبان والامير قنبردى الغزالى والا كانوا نهبوا جميع العسكر فان العسكر ماتت قلوبهم والقى الله تعالى فى قلوبهم الرعب فما دخلوا دمشق الا فى اسوء الاحوال فضاق عليهم دمشق وغليت الاسعار فاقاموا بها ثمانية عشر يوما واراد الامير قنبردى الغزالى ان يتسلطن فقال الامير ابرك اولى ما تكون السلطنة ان تكون لابن السلطان فأجابه الجلبان جملة واحدة

وبعض من القرانصة نعم فلما سمع ذلك الامير قنبردي الغزالي
أيس من السلطنة فشرع في الملاحاة عليهم وفي نعكيس امرهم
وكلما دبروا امرا لتحصل منه منفعة يسخطهم فيه فقام الامير
علان وقال تخت السلطنة بمصر ام بالشام قالوا بمصر قال
فاذهبوا الى مصر واجتمعوا مع من بها من الامراء واتفقوا على
انسان تختارونه وسلطنوه فان السلطنة لا تصلح لاحد
الا لاشجعنا واعقلنا وخصوصا نحن في اضيق الاحوال وعدونا
في طلبنا كيف نسلطن علينا ولدا صغيرا وان كان هو ابن السلطان
ليس فيه كفاءة وقدرة على السلطنة على هذا الوجه وهذا
الحال فاستصوبوا رأيه وما قصده الا ان تكون السلطنة
له فانه كان من الفرسان المخبورة المشهورة وكل انسان ما يريد
الحظ الا وفر الا لنفسه فاقتضى رأيهم بالتوجه لمصر وابن
الغوري معهم كاحاد الناس لا يلتفتون اليه واما القرانصة
الرؤس فكل منهم يتمنى ان يكون هو السلطان ولا يكون الا
ما يريد مولانا سبحانه وتعالى ثم خرج العسكر من الشام قاصدين
مصر فقالوا للغزالي من يحفظ الشام قال الامير ناصر الدين
ابن الحنش فارسل خلفه وخلع عليه خلعة تليق بمقامه فانه
كان من اعيان شيوخ العربان بتلك الديار وقال له البلاد
بلادك تسلم حفظها حتى ننظر الامر كيف يكون ثم ذهب الامير
قنبردي الغزالي مع العسكر الى مصر وهو كامن لهم الغدر لكونهم
لم يسلطنوه واضمر على معاكستهم ومال بقلبه الى رأي خيربك
في تحريض السلطان سليم على اخذ مصر فانه كان قصده
الرجوع من حلب الى شاه اسماعيل وما قصده اخذ مصر ولكن
اطمعه في اخذ مصر خيربك والغزالي فما زال الامراء والعسكر
سائرين الى ان دخلوا مصر ليلا وهم في اسوء الاحوال فنزل قنبردي

الغزالي في بيته وابن الغورى في بيت ابيه الذى بناه له في البندقانيين
وهو الذى هدمه الحمزاوى وجعله خانا للتجار وبقية البيت
باقية الى الآن وهى القاعة العظيمة وما حولها وبابها من ناحية
سر الغورية فسبحان من يغير ولا يتغير وكان الامير اينسباى حاجب
الحجاب في رأس حدرة البقر عن يمينك وانت متوجه الى
الصليبة وهو يعرف الآن ببيت حمزة الذى مات في اليمن
وتمر الزردكاش في البيت الذى في ازائه وبيت الامير تاني
بك البجمى في حدرة الصليبة عن يسارك وانت قاصد الكبش
وبيت الامير ازبك المكحل في رأس المدابغ عن يسارك الذى كان
فيه المرحوم عثمان بيك قائم مقام وبيت قانصوه الفاجر اسفل
منه من ناحية باب زويله وبيت بخشباى تجاهه وبيت برك
رأس الجلبان في رأس الصليبة من ناحية الكبش وبيت الامير
طومانباى دويدار كبير على بركة الفيل وبيت الامير علان على
بركة الناصرية بجوار مدرسة اميراخور وبيت قانصوه كرت
بالقرب من قناطر السباع وانت قاصد مصر القديمة بجوار
مدرسة لاجين وبيت ابن السلطان جركس بقرب سيدى
عماد الدين وبيت تغطباى نائب القلعة بقرب حمام بشتك
التى في رأس سويقة العزى من داخل الدرب وهو الذى كان
ساكن فيه قايداغا ناظر الدشيشه وبيت اركماس امير مجلس
في الازبكية في بيت يزبك وتاني بك الخازندار في بيت الامير
ماماى الذى هو الآن بيت قاضى العسكر وسودون الدودار في
بيت جانبلاط بالقرب من الخرنفش مقابل مدرسة الباسطية
وبيت قانصوه ابو سنه في رأس سويقة العزى من ظاهر الدرب
وبيت خوشكلدى في التبانة بجوار سويقة البقلى وافباى الطويل
في بيت ترابيه وبيت الامير قانصوه رجله في الرميلة وبيت

جانب لاط ابو تر سيي في سويقة صفية وبيت كرتباي الوالي
في رأس سويقة العزة وانت قاصد باب زويلة وكانت مصر
بهذه الامرا كالعروس المجلية وكل امير من هولاء كالملك المنفرد بنفسه
وكل من في حارته عايش في رزقه وفي حمايته فسبحان من لا يحول
ولا يزول ولا تراه العيون وبيت قانصوه اصقلة بباب الخلق
بالحدرة وانت قاصد سويقة صفية وهو مشهور الى الآن
وكان يأمر السياس بان يصقلوا اجلاد الحصان حتى يصير يلمع
كالمصقول من الثياب فلهذا سمي اصقله وكان بيت الامير سودون
العجمي في رأس سويقة السباعين على يسار القاصد للسويقة المذكورة
فرحم الله تعالى تلك الارواح

ذكر اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر

ونرجع الى اجتماع العسكر بالعسكر المقيم بمصر وحكاية ما وقع لهم
وكيف كسروا وقهروا باختلافهم في بعضهم وملاخاتهم على سلطانهم
فانهم تسببوا في هلاك سلطانهم وهلاك انفسهم وكل ذلك
ثمرة العناد كما قال القائل ولا تعاند تغلب ولو انك سلطان
ثم اجتمع الامراء والاعيان في ثاني يوم بقلعة الجبل فاقتضى رأيهم
جميعا سلطنة طومانباي وبايعوه على السلطنة في يوم الاحد
خامس عشر شهر رمضان سنة تسعمائة اثنين وعشرين وكانت
سلطنة قانصوه الغوري في سنة ست وتسعمائة وكان رحمه
الله غليظ الجثة كبير البطن متوسط الطول كبير اللحية والوجه
ورزق من الاولاد الذكور ثلاثة ولم يعش له منهم سوى سيدي
محمد وقد اخبر ولده هذا عن والده الغوري انه عاش من العمر ستا
وسبعين سنة وقيل ستا وثمانين سنة ولما بايعوا طومانباي
على السلطنة اراد ان يقبض على سيدي محمد بن الغوري ويأخذ
ما معه من المال فقام الامير برك رأس الجلبان وقام معه من بقي

من الجلبان

من الجلبان وقال لا سبيل الى اذى ابن استاذنا بوجه من الوجوه
حتى تذهب ارواحنا يهلك استاذنا بينكم ويغلب قهرا وتريدون
ان تهلكوا ولده الاخر فلا كان ذلك ابدا الا ان هلكنا جميعا
فقالت القرانصة وكان المتكلم منهم الامير علان والامير كرتباى
الوالى فانهم كانوا غرضهم طومانباى لما يعلمون من دينه وصلاحه
وشجاعته وفروسيته وليس الخبر كالعيان للجلبان
مهما حصل لابن استاذنا فى عرضنا وفى ذمتنا وانكم تعلمون
ان طومانباى رجل صوفى فقير من الدنيا وليس معه ما يقوم
بنظام السلطنة وقصدنا نأخذ من ابن استاذكم قدر ستين
الف دينار فيعطيها لطومانباى يستعين بها على لقاء العدو والقادمين
علينا واما ابن استاذكم فانه ولد صغير ليس فيه كفاية لذلك
فاستحسن الجلبان هذا الكلام وخلوا ما كانوا عزموا عليه من
القيام على طومانباى هذا ما كان من امر الجراكسة واما السلطان
سليم فانه اقام بحلب نحو العشرين يوما وكان مع الغورى خلفاء
المشايخ مثل خليفة سيدى احمد البدوى وسيدى عبد
القادر الجيلانى وسيدى ابراهيم الدسوقى وامثالهم فلما
وقعت الكسرة على الغورى بقيت المشايخ المذكورون بحلب
فلما سمعوا بان السلطان سليما قادم الى حلب خافوا من سطوته
فأخذوا فى الذهاب الى نحو الشام فلما راهم على بعد مع الرايات
والاعلام قال ما هؤلاء قالوا له هؤلاء خلفاء المشايخ كانوا
جاؤا مع الغورى فلما كسر خرجوا يريدون الذهاب الى مصر
فامر باحضارهم فلما امتثلوا بين يديه امر بضرب رقابهم واحدا
بعد واحد ولم يرحم منهم كبير الكبره ولا صغير الصغره فقتلهم
عن آخرهم فرحمهم الله اجمعين وكانوا يزيدون على الف رجل قدر
الله عليهم ذلك ثم امر بالتوجه الى الشام وكان المشير له بذلك

خيربك ولما قدم على الشام امر باحضار على نائب القلعة فشنقه
لاجل عدم تقدمه على استقباله وشنق غالب جماعته وكان
السلطان سليم له اقدام على قتل النفس لا يفكر في قتل احد وكان
الامير خيربك والامير ناصر الدين بن الحنش شيخ بلاد الدوار هم
المساعدون للسلطان سليم على مراده ليصير لهم عنده يد وتصير
لهم مزية على سائر اهل البلاد ومن كان لهم عنده مغرض يقوون
عليه قال الراوي ثم قوي عزم السلطان سليم على المجي الى ارض
مصر وما حرضه الى مصر الا خيربك فانه قصد الرجوع الى
بلاده بعد اخذ حلب والشام كما فعل قبله السلطان تيمور لنك
خان فانه كان أخذ حلب وبر الشام بجملته واخرب الشام
وحلب مرة واحدة وأفسد العباد والبلاد وهتك حرمات الله
فأخذه الله اخذة رابية وكان قصده اخذ مصر من يد
سلطانها فراج ابن قرقوف فخشي ان يتحول فعمل السكة والخطبة
في مصر والحرمين باسمه فعاد على عقبه وكذلك السلطان
سليم لما اخذ بر حلب والشام قصد الرجوع الى بلاده فأغوا
خيربك وقنبردي الغزالي وناصر الدين بن الحنش على التوجه
الى مصر وضمن له خيربك اخذ مصر وذلك مكر منه فانه علم
انه ان رجع السلطان سليم الى ارض الروم لم تبق الجراكسة على
خيربك ولو ذهب الى تخوم الارض فما ساعه الا انه التزم
للسلطان سليم بأخذ مصر ان شاء السلطان فقال له السلطان
سليم والى باخذ ملك مصر وجميع العسكر اجتمعوا بها وقد
اخذوا اهبتهم وسلطنوا عليهم طومانباي وهو مشهور
عندهم بالشجاعة والفروسية ولا بد لهم من امر يريدونه
ونخشى التجوين في بلادهم وبعد المسافة بيننا وبين بلادنا
فقال خيربك ان العسكر الذين رجعوا من بعد الكسرة

انقطعوا

انقطعوا وانقطعت قلوبهم لاسيما والخلف واقع بينهم
فانهم جميعهم مختلفون وكل من الامراء الاعيان قصده هلاك
الاخر فحينما كان كذلك ولا تخش من شيء وانت منصور بنصر
الله لك وقرأ قوله تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم فطابت
نفس السلطان سليم على التوجه الى مصر واخذها ولو فني
نصف عسكره

ذكر كتابة مرسوم الى السلطان طومانباي

قال ثم امر بكتابة مرسوم الى السلطان طومانباي ملخصه اني
اريد ان تكون الخطبة والسكة باسمي وانت نائب عني وابقيك
على ما انت عليه فلما وصل المرسوم الى طومانباي قرأه وفهم
معناه وطابت نفسه على ذلك لكونه فيه حقن دماء المسلمين
فقدر الله تعالى ان الامير علان طالع الديوان واذا قد لاحت
منه التفاتة فرأى اولاقية السلطان سليم واقفين تحت الديوان
والناس ينظرون اليهم وقد اشيع الخبر بان السلطان سليما ارسل
يطلب ان تكون السكة والخطبة باسمه فلما رآهم الامير علان
لم يتمالك من نفسه الا ان جذب سيفه وضرب اعناق الاولاقية
بيده وكانوا ثلاثة انفار وطلع الى السلطان طومانباي وهو
مملوء من الغيظ وقال له اصحيح ما قيل قال نعم قال فما الذي عولت
عليه قال اوافقه على ما اراد واكون سببا في حقن دماء المسلمين
وبقاء كل واحد في وطنه فاني علمت من كلامه اني اذا لم اجبه يحصل
عظيم وعلى كل فهو قادم علينا ولا محالة وعلمت ان العسكر كلهم مختلفون
وليس فيهم احد مع احد وما اظن الا ان الله تعالى اراد زوال
ملك آل جركس من هذه الديار فما رأيك انت قال رأيي ان
نقاتل عن بلادنا وحريمنا وارزاقنا ونقتل عن آخرنا قال
ولكم صبر على القتال قال هذا اسهل ما يكون فاني قاتلتهم في مرج

دابق وعرفت حالهم فانه ليس عندهم معرفة بالفروسية ولا
ركوب الخيل وانما غاية ما عندهم الرماة بالبندق والمشاة فنحن
اذا اصادمناهم ندكس عليهم دكسة واحدة ندعكهم تحت ارجل
الخيل ولعل الله تعالى يمكننا منهم ومن سلطانهم نأخذه أسيراً
ونجعله مثلا ليوم القيامة فلما راى طومانباى عزم الامير علان
على الحرب وانتشر الامر فمنهم من اجاب الى ذلك واختار الحرب
والطعن والضرب ومنهم من اختار الصلح فقام عليهم الامير
علان والامير كرتباى الوالى وشنعوا عليهم بالكلام وذموهم
فما ساعهم الا انهم اتفقوا على الحرب والدفع عن الحريم والاولاد
واما السلطان سليم فلما رجع له الخبر بأن اولاقيته قتلوا بمصر
ارسل خلف خيربك فلما حضر امره بالجلوس فجلس وكان السلطان
يحب خيربك لانه لا يأتيه الا على مراده فان السلطان سليما كانت
همته عالية ويحب ان يكون راس الملوك وهو من كان خادم الحرمين
الشريفين فقال السلطان سليم لخيربك ما الرأى عندك قال
نركب الى مصر نأخذها ونقطع هذه الطائفة الجراكسة من ارض
مصر جملة واحدة وانا ضامن لك هذا الامر بعناية الله تعالى
فالتفت السلطان ليونس باشا وقال له ما تقول فقال اقول ان
السلطان يأخذ من غزة الى الشام ويترك لهم مصر فاننا ان مشينا
عليهم وتجونا فى بلادهم ما نأمن على انفسنا ان حصل لنا كسرة
لا سيما وعندهم من العربان ما لا يحصى عددا والعربة ركن اليهم
اكثر منا لانهم معتادون عليهم ومنهم من هو مصاهرهم ونندم
حيث لا ينفعنا الندم فتألم السلطان لهذا الكلام من يونس باشا
وحقده فى قلبه ولكنه اسرها الله فى نفسه حتى قتله وسيأتى
ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى

ذكر خروج السلطان سليم الى مصر

قال ثم ان السلطان سليما امر بالرحيل بعد ثلاثة ايام الى ارض
مصر واما طومانباى قانه لما رأى الامراء من الجراكسة معولين
على الحرب جمعهم وضرب المشورة على من يكون باشا على العسكر
فاتفق رأيهم على ان يكون جانبردى الغزالى وكان ذلك اول
عكسهم لكونه ملاحيا عليهم فى الباطن وكان جملة العسكر الذين
خرجوا معه فى هذه التجريدة عشرة الاف عسكريا وعشرة متقدمين
من الالوف وثلاثة من الامراء الاربعينات وثلاثين من الامراء العشرات
ومن الامراء المتقدمين من الالوف العشرة المذكورين جانبردى الغزالى
نائب اسكندرية وقانصوه ابوسنه وقانصوه كرت وتقطباى
نائب القلعة ومن الامراء الاربعينات برسباى الشهبى وقرقماس
والامير مسد وجانبردى والامير قايتباى نائب الكرك ومن
العشرات الامير خوش كلدى وقانصوه استدار صحبة والامير
جانم دوادار وسيدى محمد بن الغورى واخوه جانبك وقرقماس
الشريفى ولم يسافر فى هذه السنة الحج لان السلطان كان مشغولا
بالحرب ثم خرج العسكر فى اول شوال سنه اثنين وعشرين فلما وصلوا
خان يونس واذا بعسكر السلطان سليم قد اشرف فوقف كل
من العسكرين وارسل كل منهما فارسا يكشف الخبر فلما اجتمع الفارسان
سأل بعضهما بعضا فكل منهما اجاب عن قومه ثم افترقا ورجعا
واخبرا بالامر فلما تحقق كل من الفريقين الخبر تهيؤا للقتال وترتبوا
ترتيب الحرب ودكست الجراكسة بالخيل العربيه دكسة تهد الجبال
فلاقتهم الينكجرية برش بندق خلت كرا قد اكثر من الواقف قدس
الغزالى وجانة الحمية ولفش فى القتل فتكاثروا عليه وجذبوه
بالكلاليب واخذوه اسيرا فتعصب له الذعر من الغلمان وخلصوه
من قلب العدو وبعد ان قتلوا من الينكجرية مقتلة عظيمة وخلصوه
وكانت الكسرة على الجراكسة واما هذا العسكر من الروم فانه كان

فرهاد باشا تقدم على عسكر السلطان بقدر بريد وكان المساعد
له شيخ العرب المسمى بابن البريق على الجراكسة ولا ضرهم الا البندق
فانه يأخذ الرجل على حين غفلة لا يعرف اين جاءه فقاتل الله
اول من اصطنعها وقاتل من يرمى بها على من يشهد لله بالوحدانية
ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالرسالة ونرجع الى سياقة
الحديث فاما السلطان سليم فلا زال سائرا على كراحة حتى
دخل قطية فلم يجد بها احدا من العسكر مطلقا فاقام بها ثلاثة
ايام فورد عليه احمد بن بقر شيخ بنى وائل ومعه اولاده عبد
الدائم وبيبرس والجذامى وخاطر وكان خاطر اصغرهم فخلع عليه
وعلى اولاده السلطان سليم خلعا وكان احمد بن بقر صاحب طبل
خانه في مصر واقره على ما هو عليه من بلاده وارزاقه وكذلك
مشايخ العربان ثم ان السلطان سليما امر باحضار خيربك ووزرائه
وقال ما تقولون في حيلة يكون بها تفريق شمل الجراكسة قالوا وما
هي قال ائتوني بفلان الكاتب وكان هذا الرجل يكتب بالسبعة
اقلام ويحاكي جميع الخطوط فحضر فقال له السلطان اريد منك
ان تكتب كتبا تحاكي فيها خطوطا مختلفة عن لسان امراء مصر وابن
الغوري بانهم معي في الباطن ويحرضوني على المجي الى مصر ويكونون
معي ويساعدوني على طومانباى وعلان وكرتباى الوالى فكتب
الكاتب على لسان الامراء المذكورين وربط الكتب المذكورة واعطاها
لرجل من جماعة خيربك وامره بالذهاب الى اوطاق طومانباى
وان يرميها بالقرب من مجلس السلطان ويقف لينظر ما يقع
بينهم من الخلف ثم يرجع يخبر السلطان سليما ففعل ذلك فرأى
المكاتيب بعض مماليك طومانباى فأخذهم واوصلهم الى استاذه
فأخذها وقرأها وجمع الامراء واخبرهم بذلك فانكروا كلهم
ذلك وحلفوا الايمان المعظمة ان هذا لم يصدر منهم فتحير طومانباى

في امره وافتتن العسكر وكادوا ان يقتل بعضهم بعضا فقال
لهم طومانباي ربما تكون هذه مكيدة من الاعادي كادونا
بها ليفتنونا ولكن الله تعالى يقابل كلا منا بما يستحق ولكن كونوا
على اهبتكم للقاء عدوكم فلما كان يوم الثلاثا آخر شهر ذي الحجة
الحرام جاءت الاخبار بان السلطان سليما دخل الخانقاه ونادى
السلطان طومانباي في عسكره كل من جاء برأس رومي له ما يريد
من كل شيء فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارة على عسكر
السلطان سليم وكل من استظفروا به أخذوا رأسه وجاؤا بها
الى طومانباي فصار يجزل عطاياهم فساء ذلك قنبردي الغزالي
فلما دخل الليل دخل خيمته وكتب كتابا وختمه وذكر فيه جميع ما فعله
طومانباي وانه اخرج المدافع الكبار التي اودعوها على الجبل
هناك وجعل جميع آلات الحرب في الريدانيه وقد اشرت عليهم بدفنها
في الرمل لئلا ينظرها احد من الجواسيس فيخبركم بذلك فقبلوا
مني ذلك بعد جهد عظيم مني فاني خشيت على عسكر السلطان
من ذلك البلاء العظيم والصواب ان السلطان يدور ويأتي
من جانب الجبل فيصيرون اذا رموا لا يفيدهم شيئا وارسل الكتاب
الى خيربك فاوصله الى السلطان سليم فسر بذلك واجزل عطاء
القاصد به ورد الجواب ورجع في جوف الليل الى سيده الغزالي ولكل
شيء آفة من جنسه ففي صبيحة ذلك اليوم امر السلطان سليم بالرحيل
الى ملاقاة طومانباي واما السلطان طومانباي فانه اتفق مع
الامير علان والامير كرتباي الوالي ان يتفرق بعضهم عن بعض
ويحمي بعضهم بعضا وقد علموا ان الغزالي ملاحي عليهم وتحققوا
ذلك وقصدوا قتله ولكنهم خشوا ان قتلوه يفتتن العسكر ولكن
توكلوا على الله واخلصوا نياتهم واتفقوا انهم يقصدون سنجق
السلطان سليم فلا يرجعون الا ان يقتلوه او يقتلوا فلما اصبح الصباح

ماطلعت الشمس الا وعسكر السلطان سليم منسكب من ناحية
الجبل كالجراد المنتشر من وراء ظهر عسكر طومانباى فارتجوا
لما راوا ذلك وايقن طومانباى بان عسكره ملاوح عليه وان
اشارتهم عليه بدفن المدافع مكيدة منهم له ولم يرله حيلة
يحتال بها فما ساعه الا التسليم لله تعالى فيما حل به فلم يرمِ شيئا
من تلك المدافع مطلقا الا ان رجلا واحدا وكان اخر من رمى
مدفعا يسمى مجنونة رماه وهرب ففتح فى عسكر السلطان سليم
زقاقا فارتج العسكر الرومى وظنوا ان خيربك والغزالى مكروا
بهم فارسل السلطان سليم خلف خيربك وكان قريبا منه
فقال ما هذا الذى ذكرته فى ردم مدافعهم بالرمل فما هذا
الحال ورأى منه الغضب فقال خيربك مهلا على وارسل
جاسوسًا يكشف الامر فغاب ورجع مسرعا وقال رأيت
المدافع كلها مردومة بالرمل وانما هذا رجل اخرس لم يردم مدفعه
بالرمل وابقاه مكشوفًا وقال انه ضامن لذلك فرمى به
وهرب فاطمأن السلطان سليم واما السلطان طومانباى
فلم ينظر الى شئ وانما قصد سنجق السلطان سليم هو والامير علان
وكرتباى الوالى فلازالوا فى مشوارهم وهم يطعنون
بالقنطاريات حتى غاصوا فى جميع عسكر الروم بجملتها فلله درهم
من فرسان لكونهم لقوا هذا الجيش العظيم بنفوسهم وليس الخبر
كالعيان فما زالوا يضربون ويطعنون حتى وصلوا سنجق السلطان
فظن السلطان طومانباى ان الذى تحت السنجق السلطان
سليم فقال له يا سليم انت غرسالم وجذبه من على سرجه بيده
اليسرى ورفعه بأعلى راسه وخبطه على الارض فطبق اضلاعه
بين جنبيه وضربه الامير علان من على يساره فاز الراسه وكان
معه محمود بن رمضان صاحب اضنه وكذلك فعل الامير كرتباى الوالى

بالامير علي بن شهسوار فلما فعلوا ذلك قوى قلبهم واشتفى
غليلهم وبقيت الروم باهتة باعينهم كانهم قطيع غنم بلا راعي
فاعقب الفرحة ترحه وظهر ان الذي قتله طومانباي انما هو
الوزير الذي يسمى سنان باشا وسبب ذلك ان السلطان سليما
وخيربك وفرهاد باشا ويونس باشا التفوا من طرف العسكر
ومر عليهم طومانباي عند رجوعه وصحبته علان وكرتباي
وهم ينظرون اليهم فلم يقدر واحد منهم ان يتعرض له ولا يقربه
مع انهم لو علموا انهم هم ما برحوا حتى اخذوهم ولكن الحي ماله
قاتل فرجع طومانباي من حملته تلك فلم ير احدا من عسكره فاذا
به منكسر والعدو في اثره فكشف عنه هو والاميران المذكوران
وردوا الروم عنهم واذا ببندقية جاءت للامير علان في قصبة
رجله فكسرتها ودخلت في جنب الحصان فقتلته لوقته فوقع من
ساعته الا ان الامير علان حمل نفسه وهم عن الفرس قبل ان
تصل الارض وجاؤا له بجنيب فركبه وقد أيس من الحياة فرد
السلطان طومانباي ولوى عنان فرسه الى قناطر بني وائل فلما
عاين طومانباي ذلك أيس من الحرب ولم يبق معه احد الا كرتباي
الوالي فقصد نحو القلعة وطلعوا من خلفها فلا زالوا حتى نزلوا
بركة الحبش وتمادوا الى طرا واما الامير علان فانه ما زال سائرا
حتى وصل النيل وعدى لبر المنوفية وذهب الى فلاحة ابن
بغداد الامير حسام الدين فلاقاه احسن ملتقى ورحب به
وارسل فجاءله بالمجبر وبقي عنده نحو اليومين فرأى من عينه
الغدر وانه يريد ان يقبض عليه ويرسله الى عدوه فلما تحقق
ذلك تأسف على نفسه وامر بان يشد له الحصان لاجل ان
يشم الهوا فظنوا انه لم يفطن بهم فركبوه فلما ركب جواده طلب
سيفه وترسه وقنطارسته فلم يقدر احد ان يتعرض له ولا يقربه

مع انه لو علم انهم كذا ما كان يقرب اليهم ولما ركب
على حصانه التفت الى الامير حسام الدين وقال له ستنظرون
اثر واحكم بعدنا يا خونة الله يخون الخائن ولوى عنان جواده
فلم يتبعه احد وكلما لاقته سرية عرب يقول لهم انا علان
فلم يقدر احد ان يقربه فلا زال حتى عدى الجيزة وقصد نحو الصعيد
فلا زال حتى دخل بلدا في اقليم البهنسا يقال لها نويرة فنزل عن
فرسه واستقبل القبلة فمات رحمة الله تعالى عليه فصلى
عليه اهل البلد ودفنوه في زاوية هناك واما السلطان طومانباي
فانه لما رجع من الحرب لم يجد احدا من عسكره الا وقد ولى منهزما
من كثرة البندق والضرب بالزانات فلم يستطع احدا ان يقف امام
ذلك فطلع من وراء القلعة وقصد ناحية طراو العدوية وتبعه
بعض العسكر يقفون اثره سرية بعد سرية الى ان سار معه سبعة
الاف فارس الاعيان منهم الامير قانصوه كرت وقانصوه رجله
وقانصوه الفاجر وانس باي حاجب الحجاب وخشباي امير مجلس
وشاربك الاعور والامير قانصوه العادلي كاشف المنوفية
وازبك المكحل وتاني بك النجمي والباقي مماليكهم واتباعهم واما
الامير جانبلاط فانه قد تجون في قلب العدو وما بقى يقدر على الهرب
فلما أيس من نفسه صار يقاتل الى وراه فلا زال كذلك حتى وصل
الى قبة الهواء فبطل جواده فنزل عنه وصار يقاتل راجلا يعني
ماشيا فلما رأته الروم رجل طمعوا فيه وقالوا هذا رجل ونحن
رجال فانطبقوا عليه كالجراد فصادفته ضربة زان فوقع الى
الارض ووقعوا عليه بالسيوف حتى صار لا يعلم له رأس من رجل
وكذلك الامير قانصوه رجله في الرميلة وما بقي من عسكر
الجراكسة منهم من قتل بالبندق ومنهم من هرب ومنهم من تبع
السلطان طومانباي وباتت مصر ليس فيها جركسي الا ان كان

مختفيا فعند ذلك دخل خير بك على السلطان سليم واخبره بما وقع
وانه امر بارسال صوباشي فملك القلعة وليس فيها احد غيره
والرأي لما يراه مولانا السلطان فشكره السلطان على ما فعله
من تمليكه ملك مصر الذي ماتت بحسرتها الملوك فقال السلطان
صف لي مصر كأني انظر اليها فوصفها له من اولها الى اخرها فاختار
النزول على شاطىء النيل في الجزيرة الوسطانية وانما طلع الى
القلعة ساعة وجلس على المصطبة التي تجاه الديوان ثم نزل على
الفور خيفة على نفسه من الغدر من احد من الاعادي وبات
في الجزيرة ثم انه شرع في ارسال العسكر الى طومانباي فلم يجدوا
بمصر جركسيا وباتت مصر ليس فيها منهم احد واما طومانباي
فانه سار بمماليكه الى ناحية طرا والعدوية وتبعته العساكر
الجراكسه حتى بقي معه سبعة الاف خيال فاقتضى رأيهم بالرجوع
الى مصر وان يحاربوا عدوهم حتى يفنوا عن اخرهم فرجع طومانباي
ونزل في الشيخونية وتفرقت العساكر في الحارات فقتلوا من الروم
نحو العشرة الاف او اكثر في ليلة واحدة ثم اصبحوا فجاءتهم عساكر
الروم من جهة الكبش ومن جهة حدرة الحنة فاقتتلوا مرات عديدة
وظهرت الجراكسة على الاروام وقتلوا منهم نحو خمسة عشر الفا في
ثلاثة ايام وفي كل مرة يرجع الروم منهزمين فعند ذلك اقتضى
رأي السلطان سليم ان يركب هو بنفسه ويأتي من جانب القرافة
ويلتقي طومانباي في الرميلة فاماله واما عليه ونوى ان وقعت
الكسرة عليه يتم سائرا الى بلاد الروم فلما فعل ذلك وجاء الى
الرميلة اطبق الجو من ضرب البندق والضرب بالزانات فلما سمع الجراكسة
ذلك بعدوا بعد ان كانوا غالبين مستبشرين بالنصر وهرب
غالب عسكرهم وقالوا من يقابل هذه النار المهلكة واما طومانباي
فانه لم يهرب وحطم عليهم حطمة الاسد الغضبان وقتل فيهم قتلا

حتى كل ساعده ولكن ماذا يفعل الواحد في مائتي الف واكثر ثم
رجع فلم ير خلفه احدا من عسكره فما زال طالبا نحو الشيخونية
فلم ير احدا وكان قد تواعد مع عسكره انهم ان حصل لهم هزيمة
يكون موعدهم الجيزة ثم ذهب الى مصر القديمة وعدى الى
بر الجيزة ولقيه مماليكه وبعض العساكر حتى صار نحو الالفين
واما السلطان سليم فانه رجع منصورا الى الجزيرة الوسطانية
وارسل الى خيربك فقال له ما الرأى عندك قال له ما بقي لهم
بعد هذه الصدمة رأس تنقام ابدا قد هرب غالب العسكر
ولم يتبعوا طومانباى فالرأى عندك تنادى لهم بالامان وبعد
ثلاثة ايام كل من وجد عنده جركسي مخبي شنق على باب داره
وكل من كان عنده واحد منهم واخبر السلطان به وقبض عليه
فعليه الامان هو ومن يلوذ به فبقيت اولاد مصر كل من كان
عنده جركسي يأتي الى خيربك ويخبره بما عنده فيرسل له جماعة
يقبضون عليه ويأتي به الى اوطاق السلطان سليم فيضربون عنقه
ويرمونه في البحر فمن جملة من كان مختبيا الامير كرتباى الوالي فانه
جاءته بندقية في فخذه فاضرته فما ساعه الا الهروب فاختفى
عند رجل من اصحابه من المباشرين يسمى يحيى بن بكر فلما سمع بالنداء
قال في نفسه احسن ما يكون وافعل انى اذهب الى اوطاق
السلطان سليم واخبره بأن كرتباى الوالي مخبو عندي وان
يرسل له منديل الامان واقابله به واكتفي شره وتصير لي يد عند
السلطان فجاء الى اوطاق السلطان سليم واجتمع به مع خيربك
ففرح السلطان بذلك واوعده بأن يعطي له اى منصب شاء
وارسل معه منديل الامان والمصحف وكتب له كتابا ان جاء
وقابله لا يفعل فيه شيا وعليه الامان ولا يرى منه الا ما يسره
فرجع ابن بكر الى كرتباى الوالي وبشره بالفرج وانه اجتمع مع السلطان

سليم

سليم واعطاه منديل الامان وهاهو وحسن له عبارة فى المقابلة
وانه يصير آمنا على نفسه وماله وعياله فدخلت راسه الجرأة
واجاب الى المقابلة وقام من ساعته وركب معه الى وطاق
السلطان سليم فلما راه خيربك فرح به فرحا بورث ترحا وقال
له يا امير كرتباى اين عقلك تتبع هذا المجنون المخاطر بنفسه بشير
الى طومانباى فسوف ترى كيف ناتى به ذليلا حقيرا ولكن حيث
جئت طائعا مختارا فما بقى عليك خوف بعد اليوم ثم دخل خيربك
على السلطان واخبره بمجئ كرتباى الوالى فخرج السلطان الى ظاهر
الخيمة وجلس على كرسى نصب له ونظر الى كرتباى الوالى وقال له
انت كرتباى قال نعم فقال اين فروسيتك واين شجاعتك قال
باقية على حالها قال اتذكر ما فعلته مع عسكرى قال اعرف ولا نسيت
منه شيئا قال ما فعلت بعلى بن شهسوار قال قتلته مع جملة من
قتلهم من عسكرك بعد ان عرف من عين السلطان الغدر وانه يقتله
ولا بقى له منه خلاص فترك الادب وتكلم كلام من ايس من الحياة
وجعل عينه فى عين السلطان ورفع يده اليمنى فى وجه السلطان
وقال له اسمع كلامى واصغ اليه حتى تعلم انت وغيرك ان منا
فرسان المنايا والموت الاحمر ولو يلى واحد منا بعسكرك بنفسه وحده
واذا لم تصدق فجرب فامر عسكرك ان يتركوا ضرب البندق
فقط وها انت معك مائتا الف من جميع الاجناس وقف مكانك
وصف عسكرك ويخرج لك منا ثلاثة انفار انا عبد الله والفارس
الكرار السلطان طومانباى والامير علان وانظر بعينك كيف
تفعل هذه الثلاثة تبقى تعرف روحك ان كنت ملكا او يصلح لك
ان تكون ملكا فان الملك لا يصلح الا لمن يكون من الابطال المجبورة
كما كان عليه السلف الصالح رضى الله عنهم فانظر فى التواريخ
ما كان من الامام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وغير ذلك

بأغضيه من الشجاعة وكذلك الامام على بن ابى طالب رضى
الله عنه وكرم الله وجهه واما انت فقد لفقت لك عساكر
من اطراف الدنيا من نصارى ومن اروام ومن غيرهما وجئت
بهذه الحيلة التى تحيلت بها الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة
العساكر الاسلامية وهى هذه البندق التى لو رمت بها امرأة
لمنعت بها كذا كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمى بها ما سبقتنا
اليه ولكن نحن قوم لا نترك سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم
وهى الجهاد فى سبيل الله بالسيف والعود والله يؤيد بنصره
من يشاء ويا ويلك كيف ترمى بالنار على من يشهد لله بالوحدانية
ولمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة وقد جاء بهذه البندقية
رجل مغربى للسلطان الملك الاشرف قانصوه الغورى رحمه
الله تعالى وقال له واخبره ان هذه البندقية ظهرت من
بلاد البندق وقد استعملها جميع عساكر الروم والعرب وهى
هذه فامره ان يعلمها البعض من مماليكه ففعل وجىء بهم فرموا بحضرته
فساءه ذلك وقال للمغربى نحن لا نترك سنة نبينا صلى الله عليه
وسلم ونتبع سنة النصارى وقد قال مولانا سبحانه وتعالى
ان ينصركم الله فلا غالب لكم فرجع ذلك المغربى وهو يقول
من عاش ينظر هذا الملك كيف يؤخذ بهذه البندقية وقد كان
كذلك ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم فقال له السلطان
سليم حيث كانت فيكم الشجاعة والشجعان والفرسان وانتم
على الكتاب والسنة كما زعمت فبأى سبب غلبناكم ومن ارضكم
اخرجناكم واستعبدنا اولادكم وافنينا جموعكم وها انت
جئت اسيرا بين يدينا فقال الامير كرتباى والله ما اخذتم
ارضنا بقوتكم ولا بفروسيتكم وانما ذلك امر قضاه الله
تعالى وقدره فى الازل وقد جعل الله لكل شىء بداية ولكل بداية

نهاية

نهاية ولكل دولة مدة معلومة وقسمة مقسومة وقد جرت
عادة الله سبحانه في خلقه بذلك اين الائمة المجتهدون واين الملوك
والسلاطين وانت ايضا لابدان تموت وينخرم هذا النظام وما
اظنك الا من الذين قال الله تعالى في حقهم سنستدرجهم من حيث
لا يعلمون واملي لهم ان كيدي متين كيف بك اذا وقفت بين يدي
الله رب العالمين فانفحم منه السلطان ولكنه اظهر الحلم وفؤاده
يتوقد من شدة الغيظ لما اغلظ عليه كرتباي واقام عليه الحجج
المسكتة التي ليس لها جواب ثم قال له واما قولك انك اخذتني
اسيرا فانه كلام باطل وانما جاءني رسولك بكتابك محتوما بختمك
وها هو فظننت انك تقف على قولك فما رأيت من ذلك شيئا ومما ورد
من هذا المعنى المؤمنون عند اقوالهم وايضا المؤمن ان قال صدق
وان قيل صدق وقال مولانا عز من قائل واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم
ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها فازداد السلطان سليم غيظا ولكنه
اظهر الحلم واما خيربك فقد طاطأ رأسه وصار العرق يقطر من وجهه
وبقيت الوزراء واقفين حولهم ينظرون ويسمعون الكلام ولا
يقدرون على شئ ومما ورد في الحديث الشريف اربع خصال من
كن فيه فهو منافق من اذا ائتمن غدر وان عومل نكر واذا خوصم فجر
واذا قوطع هجر وانت تزعم انك تريد ان تكون خادما للحرمين الشريفين
وانك من اهل العدل والانصاف فما رأينا شيئا من ذلك وانما رأيناك
من اهل الجور والاعتساف يا ويحك كيف تنادي للناس بالامان واذا
جاؤك تخونهم ولكن كفاك ان اسمك سليم خان والله قد رأينا في
التواريخ ان الملوك التي كانت قبلنا من الاتراك والاكراد رحمهم الله
تعالى كان النصارى اذا قالوا لهم قولا وحلفوا لهم عليه او قالوا للنصارى
قولا وعاهدوهم عليه لا يخلفوهم فيه وهم نصارى فكيف بمن يدعي
انه من الملوك العادلة ويريد ان يكون خادما للحرمين الشريفين وهو

لا يصدق فى قوله والكذب سيمة المنافقين فلا حول ولا قوة الا بالله
العلى العظيم فلا يغرنك ما انت فيه وما اصبحت دولتك فيه من
الاقبال فانه لابد لكل اقبال من ادبار ولكل جمع من تفريق ولكل أجل
من انصرام ولكل توفيق من اختلاف ولكل فرح من ترح وقد كنا اقوى
منكم واشد بأسا واعظم مراسا وانظر كيف فعلت بنا هذه الدنيا
الغدارة المكارة وبعد ما حصل لنا ذلك انا بينكم واحد بمفردى
أؤمر عسكرك ان يضربوا على يزك ويسيروا الى مائة بمائة او مائتين
بمائتين والف بألف وانظر ما اصنع فيهم كل ذلك والسلطان سليم
ساكت يسمع قول كرتباى وجراءته على هذا الكلام واستحضاره
هذه الاجوبة مع انه متحقق الهلاك ولا محالة ثم قال باى سبب تذمنا
فى قولك وتزدرينا وتسبنا والله لا بهمنا كثرة جموعكم ولا رميكم
ببندقكم واحجاركم وانما كان السبب لزوال الناخلف حصل بيننا فنظر
السلطان الى خيربك واشار اليه بأن يقرب منه حتى يشاوره فى امر
كرتباى الوالى فلما وقف قدام الكرسى قال له ما تقول فى هذا الرجل
وجوابه وقوة قلبه ان قتل مثل هذا لا يليق وافتخر بمثل هذا فى عسكرك
واجعله سنجقا فاصفر لون خيربك وقال يا مولاى ان ابقيت عليه
وجعلته وزيرا لا يبقى عليك هذا المعاند الباطل والكلب الجاهل ويفسد
جميع عسكرك وما قال ذلك خيربك الا بغضا فيه وفى ابناء جنسه
فقال له السلطان فما الرأى قال اضرب عنقه بلا تأخير وتأخر
خيربك ووقف مكانه ولونه مصفر متغير فعرف الامير كرتباى انه أحسن
له قتله فقال الامير كرتباى للسلطان ان هذا قائدك الى جهنم اصنع
ما شئت من لم يمت بالسيف مات بغيره فعند ذلك نظر السلطان
اليه نظرة الغضب وقال له انى اردت ان اعتقك وافرج عنك
واجعلك اميرا من امرائى فرأيتك قليل الادب جرئ اللسان فتحلك
فى مجلسى والذى يدخل على مجالس السلاطين بلا قيمة يخرج بلا قيمة

فقال له كرتباي الوالي معاذ الله ان اكون من امرائك ومن اتباعك
وانت بهذه الصفة فنادى السلطان باعلى صوته وقد احمر وجهه
من شدة الغيظ وقال اين الجلاد فتقدم نحو مائة وخمسين
جلادا قال اضربوا عنق هذا الملعون الجركسي فقال كرتباي قطع
رأسي وحدي لا يفيدك منه شيء فان وراءي ابطالا وشجعانا وكفى
بالسلطان طومانباي نصره الله فلما سمع السلطان بذلك امر
بالسياف ان يضرب عنقه فقال له والسيف فوق رأسه اذا
قطعت رأسي خذها وهي بدمها بيدك واجعلها في كس امرأتك يا خائن
يخونك الله فضربه السياف فطير رأسه قدامه وذهب الى حاله
واما السلطان طومانباي فانه لما وقعت الكسرة على الجراكسة كان
وعدهم قبل ذلك وقالوا ان جاءت الكسرة علينا يكون ميعادنا بر
الجيزة فلما كان كذلك عدى الى بر الجيزة وتبعه بعض الجراكسة حتى
صار معه القاشيان لكن فيهم كل فارس يقوم بالف فارس الا ان
الكثرة غلبت الشجاعة والنار لا يقابلها احد ولولا النار التي مع السلطان
سليم ما غلبهم في الحرب والامرة ولكن اذا اراد الله بامر بلغه ولله
في هذه ارادة فذهب السلطان طومانباي الى نحو الصعيد وقصد
هوارة وطلب منهم النصرة وان يرفع عنهم الخراج ثلاث سنوات فابوا
وقالوا قد بلغنا ان الروم تقاتل بالنار ومن يطيق النار فانثنى راجعا
وتبعه من العربان نحو سبعة الاف فارس محبة فيه فانه كان رحمه
الله تعالى محبوب الصورة لكل احد ولكن اذا تم الامر قرب زواله اذا
قيل تم فلم يزل قادما حتى وصل الى قرب اطفيح فرأى قلوعا كثيرة
وهي مقلعة فلما عاينها وقف وقال ما اظن الا ان السلطان سليما
جاءنا وارسل الينا جيشا قال فلما عاينوا بعضهم بعضا دخلت
المراكب البر وطلع منهم من الرماة نحو خمسة الاف رامي بالبندق
والضربزانات ومن المدافع خمسون وكان القيم على ذلك رجل يسمى

جانم السيفي كاشف الفيوم فانه جاء مع السلطان طومانباي بعد كسرة الريدانية واجتمعوا عند طرا والعدوية واتفق رأيهم بان يكبسوا على السلطان سليم بالجزيرة الوسطانية التى بين بولاق وقصر ابن العيني فلما علم ذلك جانم قال في نفسه احق ما افعل إنا اذهب الى السلطان سليم خان واخبره بذلك واخذ لى منه الامان واكون من حزبه فان دولتنا قد ولت فخرج ليلا من عسكر السلطان طومانباي هو وامير آخر يسمى ابو حمزة ومعهم مماليكهم نحو المائتين فلما اصبحوا علموا ان جانما السيفي قد خرج ليلا فاستقصوا خبره فقال بعض الاجناد للسلطان طومانباي قد سمعناه وهو يقول ان الذى يريد السلامة لنفسه يتبع السلطان سليما فان اسمه سليم ومن تبعه سلم ومن عصاه ندم فتكدر السلطان طومانباي وقال سيندم حيث لا ينفعه الندم وهل ينجي من الغدر خير ولكن لا دافع لله فيما قضى فلما اجتمع جانم السيفي بالسلطان سليم واخبره انه جاءه راغبا في طاعته وان طومانباي قد عول على كبسه في الليلة القابلة أخذوا اهبتهم واستيقظوا لانفسهم فجاءت الاخبار لطومانباي بأن جانما السيفي دخل في طاعة السلطان سليم واخبره بأنك تريد ان تكبس عليه فأخذوا اهبتهم وعبوا النار من كل جهة فان فعلت شيئا من ذلك هلكت نفسك واهلكت من معك فأعرض عن ذلك واقتضى رأيه ان ينزل في الشيخونية ونحارب كما تقدم ثم انكسر وذهب الى الجزيرة فلما علم السلطان طومانباي ان هذه المراكب ما جاء بها الا جانم السيفي فانه لما اجتمع بالسلطان سليم وعرف صدقه وامانته كان السلطان كلما يجلس في ديوانه يرسل خلف خيربك وجانم هذا ويأمرهم بالجلوس بحضرته ويستشيرهم ويبرا بما فيه الصواب ويظهر لهم انه ان تمكن على ملك مصر يعطي خيربك باشويته الى ان يموت اقطاعا ويعطي لجانم الفيوم اقطاعا ثم قال

لهم

لهم قصدى ارسل لطومانباى جيشا لعل ان اظفر به فقالوا له حبا
وكرامة قل ما شئت فانا لامرك طائعون ولرأيك سامعون فقال
من يكون باشا على العسكر فقال له جانم السيفى انا اكفيك ذلك ان
شاء الله وارجو ان لا ارجع الا براس طومانباى واقبض عليه
قبضا باليد واتى لكم به اسيرا فشكره السلطان على ذلك فارسل
معه خمسة عشر الف راكب وخمسة الاف رامى بندق وخمسين
ضربزانات وخلع عليه خلعة وخرج خرجة اطبقت الجوحين
اقلع ورمت الرماة طلقا اظلم الدنيا وايقنت الناس ان طومانباى
لا طاقة له بهذا الجيش وخصوصا جانم السيفى مقدم عليهم وكان
جانم هذا من الابطال المشهورة والشجعان المخبورة فلما عاين
عسكر طومانباى امر بدخول المراكب الى البر وسيبوا طلقا ترلزلت
الارض منه وارسل الى طومانباى يقول له فى غد الحرب بيننا
وبينك فقال طومانباى حبا وكرامة

ذكر التقاء طومانباى مع جانم السيفى

قال فلما اصبح النهار تصافوا للحرب فاما العرب التى كانت تجمعت
مع طومانباى فانهم لما راوا هذه النيران قالوا لبعضهم ومن
يطيق هذا الامر المهلك لا يقاتل هولاء الا مجنون او فارغ من الحياة
ولكن نحن نرتفع عن هولاء الى بعد فكل من رأينا الكسرة عليه
نهبناه هذا ما كان من امر العرب واما السلطان طومانباى
فانه ثبت للحرب ولم يتاخر من مكانه فكان اول من خرج فى حومة
الميدان جانم السيفى ونادى باعلى صوته لا يبرز لى الا الامير طومانباى
ولعب اندابا فى الميدان حتى ادهش الناظرين وقوى قلب الروم
حين راوا منه ذلك وقالوا اما يقاوم طومانباى فى الفروسية
الا هذا البهلوان وصاروا يشكرونه فكلما سمع منهم ذلك زاد فى
لعب الانداب حتى تعجب الحاضرون من الروم ثم بعد ذلك وقف

في حومة الميدان وقال للجراكسة اين فرسانكم اين شجعانكم فخرج
من بينهم فارس كانه الباشق اذا انقض على الصيد وقال له غرتك
نفسك يا جانم وخنت ابناء جنسك فسود الله وجهك يا خائن
فقال له بطل الكلام وابرز للضرب بالحسام فقال اصبر حتى
اريك لعب الانداب وكان ذلك الفارس هو الامير دولتباي
كاشف الجيزة فلعب في الميدان اندابا فاق عليه فتعجب الروم ثم
التطم الاثنان فوقع بينهما من الحرب ما حير النظار من اول
النهار الى الظهر فلما ايس جانم من خصمه رمى الرمح وسحب السيف
وضرب دولتباي على خوذته فقطعها وجرحه جرحا غير بالغ
فلما ساح دمه عيطت الروم باجمعها آفرم آفرم فقوي قلب جانم
وضرب خصمه ضربة ازال رمحه فبقي الرمح في يد دولتباي من غير
حربة فالتفت الركيز وحذف على جانم فدخل الركيز في جنبه شبك
بين اضلاعه فوقع عن جواده فنزل دولتباي ليقطع راسه
فاندلقت عليه الروم بجملتها فلم يتمكن من عدوه فما ساعه الا ان
تركه وانثنى على جواده والتطم الجيشان فلله در الفين تقاتل
في عشرين الفا وتكسرهم حتى اوقفوهم في مراكبهم وكان النهار
قد ولى فنزل عسكر الروم الى المراكب وعدوا الى ذلك البر واما
السلطان طومانباي فانه بات في البحر الغربي فلما جن الليل جلس طومانباي ودعى الامير
شربك الاعور وبقية الامرا وضربوا المشورة فاقتضى الراي ان يقسموا
الى فرقتين فرقة مع الامير شربك وفرقة مع السلطان طومانباي
وان يذهب الامير شربك الى بعد ويقف السلطان طومانباي
في موضع المعركة فان عدى الاروام وجاؤا الينا اخذناهم مواسطة
فاتفقوا على ذلك واما العسكر الرومي لما اصبحوا قالوا لجانم ما الراي
عندك قال نذهب للحرب اما بنا واما بهم ولا نرجع عنهم لعلنا
نظفر بهم فلما راوا جانم مصمما على الحرب قالوا والله انت مجروح وليس

لك قدرة على الحرب فقال لهم انا واحد وانتم الوف لا تحتاجون
الى واحد وكان المخاطب له اغاة الينكجرية فلما سمعوا منه ذلك
قالوا صدق فى قوله فعدوا الى البر الغربى وطلعوا الى موضع المعركة
فرأهم الجراكسة فبادروهم بالحرب والتحموا معهم فبينما هم فى
قوة الحرب واذا هم بالامير شربك الاعور قد دهمهم من خلفهم
بعد ان اخذ المراكب التى على الساحل بجملتها فما انفك منه غير مركبين
وارسل الجميع مع عشرين جنديا الى جانب وطاق السلطان طومانباى
وانطبقت على الروم الفرقتين من الجراكسة وهم كل فرقة منهم نحو الثمانية
الاف والروم نحو العشرين الف غير العربان فما مضى غير ساعة حتى
انكسرت الروم وقصدت المراكب فلم تجدها فانقطعت قلوبهم وتبعتهم
الجراكسة فأفنوهم وما نجى منهم سوى جانم والجمزة واغاة الينكجرية
المسمى اياس اغا فانهم لما انهزموا قصدوا المراكب فلم يجدوها فاطلقوا
عنان خيلهم على شاطئ النيل فتبعهم فانصوه لكن كان بينه وبينهم مسافة
رأى العين فلم يدركهم فنجوا بنفوسهم فقط وجميع ما كان معهم من
الضربزانات والبندقيات والات الحرب وغيرها كله بجملته غنمته
الجراكسة واما جانم ورفقته فانهم لا زالوا راكضين على شاطئ النيل
حتى لحقوا بالمركبين اللذين انفلتا من الامير شربك فما صدقوا الذ ينزلوا فيهما
وارخوا فى التيار فلما رأهم فانصوه العادلى قد طلعوا فى المركبين
أيس منهم ورجع متأسفا لكونه لم يبلغهم وكان السلطان طومانباى
افتقد من قتل من عسكره فوجدهم الفين وثلثمائة غير العربان وكلهم
من البندق فلما رجع جانم وابو حمزة والاغا منهزمين وقتل غالب
عسكرهم وعلم السلطان سليم بذلك كاد ان ينفلق قلبه من شدة ما حصل
له من القهر والغم وارسل خلف خيربك وقال له قد غررتنا وادخلتنا
فى بلاد هولاء ولا احد يسهل عليه ترك بلاده ولو ان طومانباى
اعطانى الخطبة والسكة باسمى لرجعت عنهم من الشام وما كنت دست

هذه الأرض برجلى ولا كنت مائلاً على دماء رقابهم ولا على مالهم واولادهم من حين دخلنا انا كنت احسب انهم زمرة قليلة وشرذمة ذليلة وانه جمع على راسه جماعة من بقية سيوفنا وحصل منه تمرد على عسكرنا نحن من الدوحة المباركة العثمانية لا نرحم كبير الكبره ولا صغير الصغره سيوفنا لامعة على رؤس اعدائنا فمن طلب حربنا ندم ومن قصد امامنا سلم وانا الذى هدمت الدولتين فى ركبتين والسلاطين تفتخر بعبوديتنا والرمال تعد ولا تعد كثرة عساكرنا من تقرب الينا شبرا تقربنا اليه ذراعا ومن تقرب الينا ذراعا تقربنا اليه باعا وان الحرب دأبنا والجهاد صنعتنا نحن من الشجرة الطيبة التى اصلها ثابت وفرعها فى السماء ويوم الحرب نمطر من سماء غضبنا حجارة ورصاصا من السماء على اعدائنا والذين هم كاصحاب الفيل نرميهم بحجارة من سجيل فيصيح كل مدفع من مدافعنا صيحة الرعد وفيه البرق والسحاب الثقيل وان هذا المتغلب الجاهل وفرعون الباطل ما هو اكبر من سلطان العجم ولا من الغورى فانهم لم يقدروا ان يقفوا امامى يومين كاملين فكيف يلم العرب والجراكسة ويعارك مع عسكرى ويعمل عليهم حيل اليهود وعندى عسكر لا يقف عليه سلاطين العالم واذا عاز مثله الى عسكر بفرد حكمى يجيبونه عسكر من دار سلطنتى اولهم يكون فى مصر وآخرهم يكون فى القسطنطينية وما مراد هذا الكافر الفاجر هو وغيره والغورى وقايتباى كانوا مماليك لنا اى شئ كان لهم نسبة بالسلطنة لا تليق السلطنة الا لنا لانا نجد نا سلطان بن سلطان بن سلطان الى سيدنا نوح عليه السلام وشغلنا الجهاد والقتال للكفار والروافض واهل الطغيان والعدوان فقال له خير بك يا مولانا السلطان ان طومانباى رجل عاقل وانا اعرف انه ليس له رغبة ان يكون ملكا ولا له على السلطنة استحقاق وانما عبدكم الغورى اوصى جميع امرائه انه اذا اصابه شئ لا يسلطنون عليهم

الا طومانباي

الا طومانباى لما يعلم من عقله ودينه وفروسيته وشجاعته فانه
فريد عصره وبعده شربك الاعوير والامير علان الذى قدمات وجاء
خبره انه جاءه ترضوبزانة فى فخذه كسرته وكرتباى الوالى الذى قطعت
راسه فقال له السلطان سليم انت اغررتنى وطمعتنى فى اخذ هذا
الاقليم فانظر كيف تصنع ودبر نفسك كيف تعرف والا فهى براسك
واغتاظ السلطان سليم من خيربك غيظا عظيما فخرج من عنده
وهو اعمى اصم لا يعلم كيف يصنع فلقيه يونس باشا الوزير الاعظم
فقال له ما خبرك فاخبره بما قال له السلطان سليم فقال الوزير
والله صدق السلطان فى قوله والله لو سمع قولى لاشرت عليه
بأن ينادى فى عسكره بالرحيل ونرجع الى بلادنا واوطاننا وما نعرف
كيف صارت احوال بلادنا من هجوم الكفرة والرفضة فانك لاجل
غرضك وكراهتك لابناء جنسك جونتنا بين هولاء الملاعين
وابعدتنا عن بلادنا فخاف خيربك على نفسه وحسب حساب يونس
باشا انه يكرهه وربما يتكلم مع السلطان سليم فى حق خيربك ويقتله
فانثنى خيربك راجعا الى خيمة السلطان واستأذن فأذن له فى
الدخول فقال له السلطان ما الذى دبرته من الراى قال ليعلم
مولانا السلطان انى ماجئتك الا راغبا فى طاعتك ومحبة لك واثرتك
على جميع ابناء جنسى وقد اطلعت على بعض الملاحم فرأيت الرموز
تدل على انك ستملك هذا الاقليم وتصير سلطان الحرمين ولكن
يا مولانا السلطان اريد منك فرد شى وهو انك لا تقبل فى حقى
كلام احد الا بما يقتضيه رأيك السديد فان اقتضى رأيك ان
تقتلنى فافعل فقد حاللتك دمى فتبسم فى وجهه السلطان وقال
له لولا تحقق محبتك ما اطعتك وجئت معك الى هنا ولكن كن بنا
فى تدبير ما فيه الصلاح فقال والله يا مولانا السلطان لا ابقى
ممكنا فى نصرتك ولو بروحى لافعلته فشكره السلطان على ذلك

وامر له بخلعة عظيمة فلما رجع من عند السلطان وهو لابس الخلعة
وراه يونس باشا وهو قادم عليه علم ان خيربك دخل على عقل
السلطان ومشى معه على مراده فقام له وبجله ظاهرا مع الكراهة
له باطنا فقال له ما الذى اقتضى راى الامير قال ما يكون الا خيرا
وارجو من الله تعالى ان يمكننا من طومانباى ونأتى به اسيرا بين
يدى السلطان فقال له يونس باشا ان شاء الله تعالى بسعد دولة
سلطاننا فلما رجع جانم وابو حمزة واياس اغا الى اوطاق السلطان
سليم تكدر السلطان وندم على ارسال جانم ثم انه عمل ديوانا فلما
حضرت الوزراء والامراء قال اين خيربك فجاء ووقف بين يدى
السلطان فقال له ما تقول قال الامر امرك ونحن بين يديك مهما
امرتنا به فعلناه ولو كان فيه هلاك ارواحنا قال السلطان ان
قلبى حس من اول ان جانم ليس هو كفوا لطومانباى ولكن انا اريد
ان ارسل له كتابا بالامان مع قاصد عاقل يرد الجواب فلعل الله تعالى
ان يهديه ونبقيه على بلاده واخبره انى رضيت منه بالاسم فقط
بان اصير سلطان الحرمين وتصير لى مزية على ملوك الارض ويجعل
الخطبة والسكة باسمى واعطى له مصر الى ان يموت فقال خيربك
يفعل مولانا السلطان ما يقتضيه رأيه فى ارسال الاولاقى
ولكن انا اعرف انه معاند وجاهل لا يوافق على شئ من ذلك وربما
يقتل القاصد فقال السلطان اذا لم يوافق والا انا القاه بنفسى
والله يؤيد بنصره من يشاء فعند ذلك ارسل قاصدا يسمى مصطفى
وكان عارفا عاقلا طلق اللسان اديبا وارسل معه ايضا خمسين
نفسا لان الطريق كانت مخيفة من العربان فلما وصل الى وطاق
السلطان طومانباى وكان بالقرب من ناحية منية ابن خصيم
ترجل عن فرسه ونزل هو وجميع من معه فاستأذن فى الاجتماع
على السلطان فاذن له فاوصل المكاتيب للسلطان طومانباى فقرأها

واعطاها

واعطاها للامير شربك فانه قد ارسل لكل امير كتابا بخصوصه
يخبرهم بانه لاحاجة له ببلادهم وانه ما يريد الا الاسم فقطوا
كل من قابله خلع عليه واعطاه مرسوما بالامان وانتم على
ما انتم عليه وانتم في امان الله تعالى والله يخون الخائن واوثق
كلامه بايمان واقسام فقال السلطان طومانباى ما تقولون يا اغوات
فقال الامير شربك اما رأيي فقتل هؤلاء الطائفة التى ساقتها القدرة
الالهية الينا لنكتفي من شرهم واما انت ان ملت نفسك الى طاعة
عدوك فاعلم ان ما بينك وبين الهلاك الا ان تصل اليه وتقف بين
يديه فتصير الامانة خيانة والعزة اهانة وتكون كالذى القى بنفسه
الى التهلكة وطلب منها السلامة وندم حيث لاتفيد الندامة واما
انا فلا ادخل تحت طاعة عدوى فلتعلم ان ما بينك وبين الهلاك الا
وصولك وتقف بين يديه فتصير الامانة خيانة والعزة اهانة وتكون
كالذى القى نفسه في التهلكة فلا ادخل تحت امان العدو في عمري
ولا مرة واحدة وذلك لانى اعرف انها آخر كل حياة الا الممات وقد
جعل الله تعالى لكل شئ ميقاتا فان دخلت تحت طاعته لا يزيد في
عمري لعلمي ان الموت لا مفر منه وان كل حى لابد له من الموت فاقتضى
رأيهم ان يقبضوا على القاصد الذى جاءهم ومن معه وان يضربوا
رقاب الاولاقية فهرب الذين جاؤا معه الى السلطان سليم ثم امر
السلطان طومانباى بالمسير الى جهته فلم يزالوا سائرين حتى اشرفوا
على بركة الجبش فرأوا بها اوطاق السلطان سليم وهم من ذلك البر
على بعد فوقفوا ينظرون ويتأملون ويضربون الرأى كيف يصنعون
وعلموا ان السلطان سليما انما خرج الى بركة الحبش مريدا للحرب ويريد
ان يعدى الى بر الجيزة فبينما هم واقفون واذا بكردوس من الخيل
قادم اليهم واذا به الامير زرمك الناشف فتقدم على السلطان طومانباى
وقبل يديه واعتذر له بانه كان معذورا بسبب جراحة اصابته

يوم الريدانية واخبره بأن قانبردي الغزالي كان رأس الملاحين
عليهم حين اخرجوا المدافع وامرهم بردمهم تحت الرمل وكان هذا
غاية المعاكسة لهم فقال السلطان طومانباي والله اني عرفت انه
ملاحي علينا من اول مرة لما ارسلته بالجيش فقتل اكثره وانهزم فعلمت
انه بالقصد منه واما السلطان سليم فانه لما جاءه جانم وابو حمزة
منهزمين واخبراه بما جرى لهم وان السلطان طومانباي قادم بمجموعه
التي جمعها فارتاب السلطان سليم فعند ذلك امر يونس باشا بأن
يرسل ويأتي بالامراء المسجونين عندهم فانهم كانوا قد نادوا لهم بالامان
وكان ذلك مكيدة من خيربك فبقوا كل من يأتيهم بالامان يحبسونه
ويتوعدهم خيربك بأنه اذا تم الامر للسلطان سليم يطلقهم ويبقيهم
على مراتبهم ومناصبهم التي كانوا عليها وباطنه بخلاف ذلك فلما جاءت
الاخبار للسلطان سليم بان السلطان طومانباي قتل القاصد الذي
ارسله السلطان سليم وجميع من معه اغتاظ لذلك غيظا كبيرا وارسل
احضر الامراء المحبوسين بقلعة الجبل من الجراكسة وامر بضرب اعناقهم
اجمعين وكانوا نحو الستين اميرا منهم ما هو امير مائة مقدم الف ومنهم
من هو امير اربعين ومنهم من هو امير عشرة فلما حضروا بين يديه سألهم
عن مناصبهم فاخبروه فقال لهم السلطان سليم لم تركتم ملككم
وجئتم الى عدوكم قالوا اثرنا خدمتك على طاعته واخترنا ان نكون
من اجنادك فقال لو كان فيكم خير كان لطومانباي فعند ذلك امر
بضرب اعناقهم بين يديه وهو ينظر اليهم فاول من ضرب عنقه تقطبا
نائب القلعة ثم انس باي حاجب الحجاب ثم تمر الزردكاش ثم اركماس
امير سلاح ثم الامير ازبك المكحل صاحب البيت الذي كان فيه المرحوم
الامير عثمان قائم مقام ثم الامير قانصوه الفاجر ثم الامير مغلباي الزردكاش
ثم الامير قاينك رأس نوبة ثم الامير ماماي المحتسب وهو صاحب بيت
قاضي العسكر ثم الامير يشبك ملوخية ثم جانبلاط الابح وكان قد عمله

السلطان

السلطان طومانباى نائب القلعة ثم الامير خيربك الخازندار ثم خيربك
المعمار ثم بقيه الامراء الذين كانوا جاوا له بالامان حتى صار الموضع
كالجزيرة ثم امر السلطان سليم بالتعدية الى البر الغربى فكانت كل تعدية
يكون فيها نحو الالفين او اكثر من الروم واما السلطان طومانباى
فانه كان واقفا يترقب نحو ربوة عالية واقام واحدا ينظر له الخبر
فلما اخبره بان الروم وصلت الى البر قال فى نفسه احسن ما يكون ان
اقطعهم اول باول فعند ذلك رمح عليهم رمحة واحدة فما شعروا الا
وهو كابس عليهم واوقع القتل فيهم فما وصلت التعدية الثانية الا
وقد افنى غالب الاولى فارتج عسكر السلطان سليم وتشتتا امرهم
فمنهم من قتل ومنهم من انقلبت بهم المراكب بما فيها فحصل للسلطان
كرب عظيم وندم على فعله ذلك وقال لو اشار على احد بذلك
لقتلته اشد قتلة ولكن يهون الله تعالى فعند ذلك امر ان لا يعدى
احد وان يصفوا اصر بزانات على شاطئ النيل ويرسوا بها على الذى فى
ذلك البر من الجراكسة فرموا عليهم طلقا ادوى بر الدنيا فبينما هم فى
تلك الحالة واذاهم بغبار قد طار من خلف اظهرهم وصيحات وعيطات
وخيل قد ملات الوادى فوقفوا ينظرون ما هذا الامر فلما قربوا
منهم واذا بهم عرب غزالة يقدمهم حماد بن خبير واخوه سلام
وكان سلام هذا بطلا لا يطاق فبادروا السلطان طومانباى
بالسب والشتم والكف عن محاربة السلطان سليم وقالوا له ان لم
ترجع عن محاربة السلطان سليم والا كاكلنا عليك ونأخذك مواسطة
ولكن ارجع الى حيث شئت واخرج من ارض مصر فانكم قد قتلتم منا
خلقا كثيرا فى ايامكم ولا بيكم وما منا من احد الا وله احد قد قتلتموه اما
اخوه واما ابوه واما قريبه وقد ازال الله تعالى دولتكم وجاء
بهذا الملك العادل فقال لهم طومانباى ستنظرون ارواحكم بعد
وكف السلطان طومانباى واثنى راجعا بعد ان خادعهم بالكلام

فلم يقبلوا منه قولا مطلقا فقال لا حول ولا قوة الا بالله العلى
العظيم اعلموا يا اغوات ان دولتنا قد زالت واجالنا قد مالت وما
بقى لنا فى هذه الديار نصيب ولكن لنا اسوة بمن كان قبلنا وانظروا
الى هذه الحالة وما النصر الا من عند الله وقرأ قوله تعالى ان ينصركم
الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده فما الرأى
عندكم قالوا الله الرأى ما تراه وها نحن بين يديك كما تفعله نحن موافقون
لك عليه فقال لهم سيروا بنا الى جهة الهرم فساروا فبينما هم
سائرون واذا بكردوس من الخيل قدموا عليه فارسل ينظر من هؤ
واذا به الامير قيت رجبى الذى كان محبوسا بالاسكندرية وقد كان
حبسه السلطان الغورى وكتب على قيده مخلد فلما تسلطن طومان
وحصل له ما حصل تذكر قيت رجبى هذا وكان من الفرسان المجبورة
فقال احق ما يكون ان ارسل فاطلق قيت رجبى واخلع عليه ليكون
لنا عونا على هؤلاء الاعداء فكان مجيئه فى هذا الوقت فقبل يد
السلطان طومانباى وتلقته الامراء وليسوه خلعة السلطنة
وسار معهم الى جهة اهرام الجيزة وبكوا بكاء كثيرا وحكوا له ما وقع
للغورى وما جرى لهم من اوله الى اخره فقال لهم بالله المستعان
وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم لا تستعينوا
الا بالله وكان من اهل الرأى والدين وكان قارئا كاتبا عارفا بانداب
الحرب ولهذا حبسه السلطان الغورى خوفا من ان يدبر عليه امرا
ثم قال الامير قيت رجبى يا مولانا السلطان اختير عندى ان
نجعل هذه الواقعة نظما ونكتبها على هذا الهرم ليكون لنا به
الذكر على ممر الدهور والايام وكان بازاء الاهرام فقام السلطان
والامراء الى الهرم الغربى فوقفوا عنده قال الناقل فاخذ وشرع السلطان
طومانباى ينشد والامير قيت رجبى يسمع والامير شريك
يكتب على الهرم هذه الابيات التى جاءت من احسن المعلقات تتضمن

جميع

جميع ما جرى لهم من اول الحرب الى آخره نظما حسنا وهى هذه الابيات

دموع العين فاضت من اماق ... وقلبى ذاب من كثر احترا ق
فلا نارى طفاها دمع عينى ... ولا دمعى يفيض من اختناق
ونى اسف على اسف وحزن ... وهم فوق هم واشتياق
على زمن تقضى فى نعيم ... بمصر والعلى والعز راق
وشمس السعد فى شرف المعالى ... وبدر الضد فى درج المحاق
ولما ان اراد الله هذا ... اتانا الروم من جهة العراق
وسلطان الجميع سليم شاه ... عظيم الملتقى مر المذا ق
وكان الماجد الغورى منا ... مليكا شبه بحر فى اندفا ق
وقد قاد الجيوش لنحو حرب ... وكان المرج وعدا للتلاق
وكان الحرب يوم الحد لكن ... تولى جيشنا والحرب باق
وسلطان لنا اضحى قتيلا ... طريحا والدما فى الانهرا ق
وكان الخائن الكلب الغزالى ... وخيربك المبوطن فى النفا ق
هما اصل الهزيمة عن حقيق ... الى حلب لخيل فى سبا ق
وصار الجيش من حلب لمصر ... وزاد الكرب مع ضيق الخنا ق
وعند حماه خيربك المخامر ... رجع لعدونا يبغى شقا ق
وفى الشام الغزالى كاد كيدا ... وابرك عا قر كل النعوا ق
وساروا بعدها سيرا حثيثا ... لغزة ثم مصر فى لحا ق
ولما استجمعوا فى مصر قالوا ... نسلطن ايكم لعدو واق
ولو وا بينا اهل لهذا ... براى الفيل علان المواق
وسيرنا الشريعه عظيم جيش ... عشرة الالاف فرسانا استبا ق
وقدمنا على الكل الغزالى ... ولم يعلم بسوء الاختلا ق
فاختار الهزيمة وهو سال ... سلاح الحرب خوفا من دها ق
وجاءتنا رجال الروم مصرا ... وقد حازوا البلاد مع الافا ق

خرجنا بالجموع لنلتقيهم   وكان الشر يوم الحرب راق
وفي حط المدافع قام قومي   وزاد في الخصام وفي الخناق
وقد جاءت علينا الروم زحفا   كبحر مالح في الاندفاق
وزاد الرمي بالبارود حتى   حسبت الرعد يحلول الطلاق
واطبق كل ناحية وفج   واشغل بالمشقة والدقاق
وقلت لكربنا ترى الاعادي   علينا كالسحاب على السراق
وقلت الى الفتى علان خفنا   فليس لنا من الاحيا بواق
فقال اليوم نصليها بطعن   تموت الناس والتذكار باق
وقمنا بعد ذلك قد حملنا   كأسد لا تخاف ولا توا ق
قتلنا من ملوكهم ثلاثه   واسقيناهم كأس الدهاق
ولما قد راوا ذا الفعل منّا   اتونا كالجبال بانطباق
فاسقيناهم كاس المنايا   فخروا للثرى مذ كنت ساق
وبدت الفوارس في مجالي   بطعن في الصدور وفي الاماق
وعدنا عودة للأسد لمّا   اتوا بالصيد من قلب الوطاق
وقد صبنا الغزالي قد تولى   واختار الهزيمة بالنفاق
وفي علان جاءت ضربة زان   وكان بها المنية والفراق
فوا اسفا عليه وقد تولى   وودعني وداع الافتراق
تظل العين باكية عليه   بدمع لا يمل كما السواق
وجابر كبتيه كمثل هذا   وصار الفخذ منه كالنطاق
كذلك جانبلاط غدا طريحا   ابو يس في الشجعان راق
واما قانصوه امير قطيا   فلم يوقه يوم الحرب واق
وكم قد رمت قتل سليم شاه   فلم يبارزني وحر الحرب باق
وكم قد قلت اين سليم شاه   يبارزني وحر الحرب باق
واقسم لو اراه غدا قتيلا   بسيفي لو رقا سبعا طباق
ولما ان رأيت الحرب دارت   علي وقد نأى عني رفاق

فوليت الجواد لنحو مصر	وحسيت الفنا والله باق
وعند طراتا نالجيش جمعا	وسرنا الشرق يا بئس الشراق
وعدينا المصر لاجل حرب	كبسنا الروم والديجور باق
قتلنا منهم جمعا غزيزا	بضربات المهندة الرقاق
ثلاثين بان القتل فيهم	وفينا والعساكر في محاق
وقومي قد ارادوا يغدروني	ويرموني اسيرا في وثاق
وشاربك احتمى عني بسيف	وكان بنفسه لي خير واق
جزاه الله عني كل خير	وكان له رحيق المسك ساق
ورحنا قلقشنده ثم عدنا	وصرت اجد من عظم اشتياق
وجدنا قاتنا امسى قتيلا	وفوق الالف معه في دهاق
فقلت لشاربك اذهب سليما	واحذر من طبيعات الحماق
فان عداءنا جمع عظيم	كمثل البحر زايد في تراق
فقال اليوم نصليها بطعن	كمثل السم لا ينفعه راق
وقاتلنا الجموع وقاتلونا	ونحن على المضرة والعناق
وبعد الظهر جادتنا جيوش	عداد الرمل جمعا في انطباق
وزلزلت البلاد بهم الى ان	حسبت الحشر قام مع التلاق
فقلت لرفقتي خلوا وقلوا	وولينا جميعا بافتراق
دخلت البيت نخبه لقاني	جموع من نسا نائي زعاق
وقاموا في ضجيج مع نحيب	وجاءت خوند بثوب طاق
وقالت لي تخلفنا على من	وليس لنا ترى في الحي واق
وتهرب من ذئاب وانت ليث	طويل ناب والمخلاب باق
وفيك السابقات لكل خير	وفيك اللاحقات مع البواق
فخلصنا من الاروام يا اذا	فانا في مضيق وانغلاق
فقلت لهم ونبه البيت اني	صبوح الضرب بالبيض الرقاق
احب الي من شرب الملاهي	على كاس وابريق وساق

وشرب دما الفوارس كل يوم | مدامي واصطباحي واغتباق
وانى ان ذهبت الى اعتذار | لقد قلت جموعي مع رفاق
وعنتر غاب عن عبلى سنينا | بقيد الاسر في ارض العراق
ونام الزير دهرا عن كليب | وبعد سنين جا لما يلاق
وان النيل يعلو بعد نقص | ويرقى الاوج من بعد انمحاق
وانا الليث يهرب من لهيب | ويرجع رجعة كالسم فاق
وانى بعرف امضى ثم اتى | كرجعة عنتر يوم السباق
فعادت وهى نادبة بقهر | تضج الضج من الم الفراق
وقالت يا طومانبا المفدى | فراقك عندنا مر المذاق
فسافر في امان الله انى | ودعتك للذى رفع الطباق
فرجعت الجواد ودمع عينى | كسيل سال من بحر الاماق
وسافرت الصعيد نحرب جيشا | كما قالوه راقا فوق راق
وجانم قد اتى وبدا يحرب | فولى هاربا دون الزقاق
وسرت لنحو مصر في جيوش | تقادم الحمولة والنياق
ورزمك قد لقانى في طريق | فيا له ماجد طلق طلاق
وصبحنا جيش الروم صبحا | على الجود المضمرة العتاق
وزدنا القتل حتى كل سيفى | واشكل نيل مصر بالهراق
وقد رهنا نعدى البحر لكن | غزالة قد اتونا في استباق
ورامو احربنا وبغوا علينا | وان البغى اشام الاختلاق
فعدنا عن قتال الروم قهرا | لقينا قيت سيد من يلاق
وعلقنا على الاهرام شعرا | كنظم الدر في حسن النساق

قال الراوى

فاقتضى راى السلطان طومانباى ومن معه من الامراء ان يدخلوا الى دهشور وينادى في البلادان الخراج بطال ثلاث سنين وان من اراد القتال ونصرة السلطان طومانباى فيسرع

الينا وله مالنا وعليه ما علينا فلما كان كذلك اجتمع لهم عالم عظيم
من عرب وفلاحين وغيرهم ثم اقتضى رأيهم ان الامير شريك
يكون باشا على عشرة الاف فارس راكب وماشي الى قتال
السلطان سليم فى اى محل صادفه فيه . وان السلطان طومانباى
يستمر في دهشور حتى يأتيه الخبر من عند شريك هذا ما كان من
امر هؤلاء واما ما كان من امر السلطان فانه ضاق صدره وندم على
دخوله مصر وخشي ان يطول عليه المطال ويدخل عليه الشتاء
وينقطع عنه خبر بلاده وخشي من امر النصارى ان يدبروا امرا في
غيبته على اخذ الممالك الاسلامية فاشتغل فكره ودخل عليه
الوسواس فنوى ان يبطش بخيربك فانه هو الذى حسن له التوجه
فى اخذ مصر وخصوصا وعده السلطان ان يجعله باشا على مصر
الى ان يموت فبينما هو فى هذا التفكر وقد دخل عليه الوزراء واخبروه
ان بلاد الاطفيحية خرجت عن طاعة السلطان سليم وقامت
العربان كلها على ساق لنصرة السلطان طومانباى فازداد غما على غمه
فاقتضى الرأى ان يرسلوا تجريدة تمهد العربان وتأمرهم بطاعة السلطان
سليم وانه ما قصده الا عمارة البلاد وانه لا يحصل منه اذية لاحد
من العرب ولا من الفلاحين وانه كل من عاند او خالف ليس له جواب
الا السيف فقال السلطان من يكون سردارا على التجريدة فقالوا كل
من اختاره السلطان فقال يكون قانبردى الغزالى فانه يعرف بأمر
هذه البلاد وبقتال العربان فلما حضر امره السلطان بذلك فاجاب
بالسمع والطاعة وقال امر العربان هذا اسهل ما يكون ولا يهتم
مولانا السلطان بشيء من ذلك ابدا قال الشيخ احمد بن زنبل الرمال
ان السبب فى وصول الغزالى الى طاعة السلطان سليم هو انه
لما عاكس السلطان طومانباى فى امر المدافع وغطوهم بالرمل عنادا
وتكبرا منه ومن بعض الامراء فلما حصل ما حصل من الهزيمة فى وقعة

الريدانية وانهزم من جملة من انهزم وحسد امنه للسلطان
طومانباى وكان قصده ان يتسلطن هو فلما اقتضى راى الامير
علان والامير شربك الاعور والامير كرتباى الوالى والامير
قانصوه العادلى والامير ابرك راس الجلبان وبقية الامراء
والاعيان ان يسلطنوا طومانباى لما يعلمون من فروسيته
وشجاعته وديانته وانسانيته وتواضعه وزهده فى
الدنيا وعدم التكبر والتجبر وليس يستحق السلطنة الا هو فلما
كان كذلك غلب الحسد على قانبردى الغزالى والبغض لابناء جنسه
حيث انهم لم يؤهلوه للسلطنة وقدموا عليه طومانباى وكان
احق بها واهلها نسبة الى غيره والغزالى اخذ يعاكسهم فى كل امر
دبروه ويخطئ رايهم فيما يفعلونه فعلم السلطان طومانباى
والامير علان انه ملاحٍ عليهم فاراد الامير علان ان يبطش
بقانبردى الغزالى فقال له السلطان طومانباى لا تفعل فقال
له اما تنظر الى معاكسته لنا وعناده قال اخشى انك ان قتلته
ربما تقع الفتنة فى عسكرنا وينخرم نظامنا ولكن اصبر الى ثانى مرة
وما يكون الا ما يريده الله تعالى ولا يغلب لله غالب والله سبحانه
وتعالى يعلم اننا ليس لنا رغبة فى قتل احد وانما هؤلاء القوم بغوا
علينا ويريدون ان يأخذوا بلادنا واموالنا واولادنا ويسكوا
حريمنا فوجب علينا ان ندفع عن انفسنا وعن اموالنا واهلنا
واولادنا ودع كل من قدر على شئ ان يفعله والله يفعل ما يشاء
فقال الامير علان والامير شربك والله ما دام هذا الخبيث
الولد الزنا بيننا لا ينقام لنا نظام ابدا وما دام خيربك مع عدونا
لا يرد الخصم عنا ابدا فقال السلطان طومانباى والله ثم والله
ليس لى رغبة فى سلطنتى وانما انا واحد منكم ولولا انكم اخترتمونى
والزمتمونى بذلك ما طاوعتكم فى شئ من ذلك ولكن لله التدبير

فلما انهزم قانبردى الغزالى تبعه اثنا عشر اميرا فصادف منهم
الامير سودون الدواداري ضرب زان اخذ فخذه فسار معهم
الى قليوب وهو بلا فخذ فتصفى دمه فمات هناك ودفن بها
فجاء بعد ذلك على باى واخرجه من قبره وحمله الى مصر ودفنه
فى تربته وتم الامير قانبردى الغزالى ومعه احد عشر اميرا وكان
من جملتهم ازدمك الناشف الى ان وصلوا الى الامير احمد بن
بقر فخرج الى لقائهم ورحب بهم واقام بخدمتهم ومازالوا
عنده والاخبار ترد عليهم وشاع ذكر طومانباى وما ظهر
منه من الفروسية وما فعله فى عسكر السلطان سليم وما
قتل منهم وكذلك الامير شربك الاعور والامير قانصوه العادلي
وغيره من الاعيان الذين تبعوا السلطان طومانباى فحصل
عندهم الغيرة من ذلك فان الجراكسة كانوا قوما نفوسهم
شامخة واعطاهم الله تعالى الشجاعة والفروسية وكانت هي
فخرتهم فكان كل منهم تحدثه نفسه انما يكون سلطانا لاهو
فلهذا اخذوا عن دابرهم فان اخذ الملك ليس كان عندهم الا بالشجاعة
والملك ليس بقوة وانما هو امر الهي يعطيه الله لمن يشاء من عباده
ولما ترادفت الاخبار بما فعله طومانباى صاروا يتعجبون من ذلك
فان طومانباى ما كان مشهورا عندهم الا بالدين والصلاح وكان
الذى ينظره بهذه السكينة والوقار لا يشك فى صلاحه وكان
محبوب الصورة عند كل احد فلما صارت منه هذه الشجاعة
والفروسية صاروا يتعجبون فقال لهم الامير ازدمك الناشف
انا سمعت قول القائل الشجاعة صبر ساعة فقالوا له صدقت
يا امير لكن من يصبر على ملاقاة هذه النيران وضرب الزانات
والبندقيات ولو كانوا امثلنا يقاتلون على ظهور الخيل كان الواحد
منا يقاتل منهم مائة ومائتين لانهم ليس عندهم معرفة فى ركوب الخيل

ولا الجولان فى الميدان فقال الامير رزمك الحى ماله قائل وقال
فى نفسه ما ثمرة بقائنا فى هذا المحل وسلطاننا يقاتل بنفسه
والله ليس هذا من المروءة ونوى على الذهاب الى السلطان طومانباى
وبات ما اصبح ففتش عليه الغزالى فلم يجده فعلم انه سار الى السلطان
طومانباى فخشى انه اذا قام يوما اخر رجعت بقية الامراء الى
طومانباى ويخبره بمحل الغزالى الذى هو فيه فقال فى نفسه وتكلم
مع الامراء الذين معه وقال لهم يا اغوات اعلموا ان دولتنا قد
ولت وما بقيت هذه البلاد الا لهذا الملك والاولى والاحسن
ان نذهب اليه ونأخذ له امانا فاذا اصرنا فى امانه امنا على انفسنا
واموالنا وحريمنا وايضا ليس هو مقيما فى هذا الاقليم فانه حيث
تمكن من البلاد بأخذها وقتل طومانباى اقام خيربك نائبا عنه
وذهب الى بلاده فاذا ذهب عنا بقيت البلاد فى ايدينا نتصرف
فيها كيف نشاء قالوا له ومن اين لنا انه يعطينا الامان قال لهم انا
اضمن لكم ذلك فان بينى وبين خيربك اتفاقا باطنا لا يعلم به احد
الا انا وهو فعند ذلك اطاعوه وذهبوا معه الى ان وصلوا الى
كيمان الريش وارسل اعلم خيربك بقدومه ففرح خيربك بذلك
فرحا شديدا وذهب الى حضرة السلطان سليم واخبره بذلك
ففرح السلطان ايضا فرحا عظيما وارسل له خيربك والوزراء واعيان
دولته فلقوه ودخل من باب القنطرة فى موكب عظيم وخلع عليه
خلعة عظيمة من اعظم خلع الملوك وقابل السلطان سليما ورحب
به وامنه وامن جميع الامراء الذين كانوا معه وصار معززا مكرما
عند السلطان سليم وعند عسكره ونرجع الى سياق الحديث قال
فلما اخبروا السلطان سليما ان العربان قامت على ساق وعصوا
وخرجوا عن طاعة السلطان واقتضى رأى السلطان فى ارسال
تجريدة فارسل الغزالى باشا على العسكر وكان معه خمسمائة فارس

من الجراكسة وخمسمائة رامى بندق من الينكجرية الى بر الاطفيحية
فلما وصل الى اطفيح وراى البلاد كلها قائمة على ساق والعربان مجمعة
وراوه قصدوه وبادروه بالسب والشتم ثم وقع بينهم الحرب
فكانت الكسرة على العرب فانه بادر برمى البندق فلم يثبتوا لذلك
فولوا هاربين فتقفاهم ومزقهم كل ممزق وشتتهم وامر بنهب
نجوعهم وسبيهم وحريمهم واولادهم وارسل جميع ذلك الى
السلطان سليم فامر ببيعهم فى الرميلة فبيعت النساء والاولاد
الاحرار كما يباع الرقيق ولكن بابخس قيمة فصارت الناس كل من
كان فى قلبه رحمة يشترى منهم الذى يشتريه ويعتقونهم فى الوقت
ووقع على الغزالى من دعاء العامة ما لا يحصى عددا حتى دعت عليه
اليهود والنصارى ولما سمعت العربان بذلك عصت جميعا *
وكذلك العشير والحوف وكان سيدى يحيى بن الاميرازبك صاحب
بركة الازبكية لما كانت وقعة الريدانية وانهزمت الجراكسة
تم على ظهر فرسه الى بلاد بنى حرام وكان بينه وبينهم مصاهرة
وتم مقيما عندهم والاخبار تتنقل اليه وترد عليه وقلبه مع
طومانباى ولكن لا وصول له اليه فلما كان كذلك وعصت
جميع العربان والبلاد راى له طريقا الى الخروج فصار هو وبنى
حرام يخرجون ويدورون فى البلاد والطرقات حتى وصلوا الى
باب النصر وباب الشعرية وكل من وجدوه روميا قتلوه فقتل
من الاروام خلقا كثيرا خصوصا من الاروام الذين يسمون بعجم
اوغلان فانهم كانوا يدورون ينهبون كلما يجدونه من ماكل
وغيره فكانت الزعر والفلاوية وحسن القتل فى ذلك الزمن وكان
سيدى يحيى بن الاميرازبك شجاعا عظيما وكان من الفرسان
المخبورة حتى اجمعت الناس على انه كان فريد عصره ووحيد دهره
فى كل فن من فنون الحرب وكان فيه محاسن تفوق عن الوصف

فلما سمع بان السلطان طومانباى يقاتل السلطان سليما عند المنلوا
ورحل عنها الى دهشور وانه جعل الامير شريك الدوادار الكبير
مقام نفسه فى جميع اموره واشترط على نفسه ان ايده الله تعالى
بنصره جعله ولى السلطنة من بعده لاجل ما نظر من شجاعته
وفوته فى الحرب فعند ذلك قام سيدى يحيى بن الامير زيك وعزم
على التوجه الى السلطان طومانباى وعدى من بر الشرق الى بر الغرب
وتم سائرا وكل من تلقاه من العربان يترحب به ويفرح به ويلتم
اليه فانه كان مشهورا ومخبورا عندهم بالفروسية فلا زال
سائرا حتى وصل الى دهشور واجتمع بالسلطان طومانباى ففرح
به السلطان وساله عن حاله فاخبره بما فعله هو وبنو حرام من
قتل الاروام فشكره السلطان على ذلك وامره ان يكون مع الامير
شريك من اصحاب المراتب قال الراوى هذا ما كان من امر هؤلاء
واما ما كان من امر السلطان سليم فانه لما نظر الى هذه الامور
المفزعة والاحوال المطربة خاف على نفسه وضاق صدره من
اجل ذلك وتحير فى امره فقال لارباب دولته ماذا تقولون فى
هذه الطائفة القليلة كلما اقول ان امورهم هانت فما اراها الا
تزيد فى كل يوم وقد حصل لنا منهم غاية الضرر فقال يونس باشا
والله كان رجوعنا من الشام هو الصواب الا ان خير بك لما ات
وعدته بان يكون ملك مصر ما دام حيا صار يدبر فى تحصيل
مراده ولا قدرة له على ذلك فهو يحسن لمولانا السلطان العبارة
ويسهل لك الامور ويظهر لك انه ما قصده الا ان تكون البلاد
بلادك والحال انه فى باطن الامر انما يستعين بك على بلوغ مراده
وهو هلاك ابنا جنسه واستقلاله هو بالبلاد والملك وترجع
انت ونحن معك ان سلمنا ويستقل هو بالبلاد لنفسه وقد
طمعت اماله بانك لا تاخذ منه مالا ابدا فهو مجتهد فى ذلك غاية

الاجتهاد

الاجتهاد فحصل عند السلطان سليم تغير عظيم على خيربك حتى ايقنوا اجمعين بانه لا يبقى عليه ابدا وكان يونس باشا الذى هو الوزير الاعظم يكره خيربك فى الباطن لما رأى منه من قلة الخير فى حق ابناء جنسه وكان ليونس باشا من الاخلاق الحميدة والاوصاف الجميلة ما يفوق الوصف وكان يعرف ان خيربك ما قصده الا بلوغ مراده ولكنه دخل فى عقل السلطان سليم وصار يصغى لقوله وصار السلطان متحيرا لانه ان قتل خيربك وهو مسجون فى مصر قامت عليه جميع البلاد من الشرق والغرب فقال السلطان سليم لارباب دولته انا نحن قد اخذنا ارض هؤلاء القوم وسبينا حريمهم وقتلنا اكابرهم فماذا نريد بعد هذا وكفى ما قد جرى وصار الاحسن فيما ارى ان نجعل بيننا وبينهم صلحا ونترك لهم بلادهم فاشاروا عليه بارسال خوشقدم نقال لهم حبا وكرامة ولكن اذا لم يوافقوا على ذلك والا كنت انا اول من يقاتلهم ثم خرج من عند السلطان سليم فطلبه يونس باشا واوصاه بانه لا يغلظ عليهم فى الكلام فان الكلام اللين تقبله النفوس فلما وصل خوشقدم الى دهشور رأى جيشا عظيما وخيلا كثيرة فلما وصل اليه فاذا به الامير شربك ومعه هذه العساكر وهو قاصد قتال السلطان سليم فلما اجتمع به ووقعت العين فى العين قال خوشقدم يا معاشر الامراء والسادات انى اريد الامير شربك واتكلم انا وهو فيما يكون فيه الصلاح لنا ولكم فتقدم الامير شربك وعن يمينه الامير ابرك رأس الجلبان وعن يساره قانصوه العادلى والامير قلج وحركوا خيولهم وقد خرجوا عن قومهم حتى التقوا بالامير خوشقدم وصار بينهم قدر رمحين فكان البادى بالسلام الامير شربك فرد عليه خوشقدم السلام فقال الامير شربك ما معك ايها الامير وفى اى شئ جئت فقال جئت فى الصلح بينكم وبين هذا الملك

الذى هو سليم شاه الذى هو اعظم ملوك الارض ولست ارى لكم
ان تعادوه والراى عندى ان تدخلوا تحت طاعته احسن من
ان تصيروا في قبضته وتذوقوا بين يديه العذاب ويقطع منكم
الرقاب لانه ارحم عليكم وانتم ارحم على ارواحكم وارقابكم
واولادكم ونسائكم وعيالكم فكفوا شره عنكم فقال الامير
شربك اما انت فامرك امر عجيب فقال لماذا قال لانك كنت تقول
قبل هذا الملك الذى يقول انه اعظم ملوك الارض ان جاء من الروم
الى ارضنا اول من يقاتله انا واكون فداء لابناء جنسى جميعا فلما
ذهبنا الى شرق اطفيح ورجعنا الى حرب عدونا وضربنا الراى ان
نكبس عليهم ليلا فهربت انت منا ورجعت الى عدونا الذى كنت
تقول انك اول من يقاتله واخبرته بما دبرناه واطلعته على ما اضمرناه
فلا ادرى افعلت ذلك من جبن فى قلبك او خلل فى عقلك واعجب
من هذا انك جئت اليوم تزعم انك تريد الصلح فلا ندرى اخصم
انت ام حكم فقال له خوشقدم صحيح انى فعلت ذلك وما فعلته جبنا
من الحرب ولا خوفا من الطعن والضرب وانما فعلت ذلك لما
انى رايتك صرت دواداراً كبيراً وتعاليت علينا هذا العلو الزائد
كرهنا ان نكون تحت امرك وان ننقاد لقولك وفعلك فقال له
الامير شربك من حسن عقله وحلاوة لسانه وطول روحه
وادبه فى جوابه والله يا امير خوشقدم لو اخذت انت هذه
الوظيفة التى حسدتنى عليها لكنت اول من يخدمك فيها ويقوم
بحوايجك فقال له خوشقدم بعد ان خجل منه واستحى والله انا
كنا حسدناك عليها ولكن لما سمعنا عنك ما لم نصدقه من
الفروسية والشجاعة ورايناذلك عيانا قلنا والله انه احق
بها واهلها ولولا ان السلطان طومانباى يعلم منه انه يستحق
ذلك ما اعطاه له ولكن هذا فلح من ابن حتى يكون فى مرتبة كرتباى

الوالي فلما سمع الامير قلج منه هذا الكلام ما ساعه عقله ان يسكت
عن الجواب فقال له وانت لو علم الله ان فيك خيرا اعطاك اعلى
منا ولكن الله تعالى علم انك رجل خائن خارج عن حدك مارق
عن ابناء جنسك فلما سمع خوشقدم هذا الكلام اخر فعزجه
وكان عنده طيشان عقل وخرجت منه الحدة فثلث قنطاريته
وطعن الامير قلج طعنة بقوة عزمه يريد بها هلاكه فاخلى عنها
بمعرفته فراحت في البطال ومن شدة الطعنة كاد ان يسقط
خوشقدم عن جواده فلما عاين ذلك الامير شربك خرج منه الحدة
وكان في يده طبرجاح مكتوب على ظهره بالذهب هذا دليل لنهب
الارواح فضرب به خوشقدم على قنطاريته فابراها كما تبرى
القلم فلما سقطت قنطاريته من يده جذب سيفه وقصد الامير
شربك فضربه ضربة ثانية بالطبر على خودته فقطعها وجرح راسه
جرحا عظيما فلما راى الدم على وجهه ولى هاربا فلما راوه اتباعه
ولى هاربا والدم يقطر من لحيته ولوا وتبعوه منهزمين فتبعهم
شربك قدر ميل ورجع عنهم فما سلم منهم الا القليل فلما وصلوا
الى اوطاق السلطان سليم وشاع الخبر بان خوشقدم منهزما
وولى مجروحا ووصل الخبر الى السلطان سليم اغتاظ غيظا عظيما
فامر باحضار خيربك فقال له اني اريد الرجوع الى دار سلطنتي
لان الاعادي في حوالي مملكتي وقد قرب الشتاء واشتد الغلاء
واترك هذا الخراب لاهله فلما سمع خيربك ذلك عسر عليه هذا
الامر وقال يا مولانا السلطان ان فعلت ذلك سقطت من اعين
الملوك ويقولون هرب من الجراكسة ولكن الصبر عاقبته الفرج
ومن تانى ينل ما يتمنى فعند ذلك امر باحضار من كان مع
خوشقدم من الاروام وقال لا تاتوني بجركسي ابدا ولا تروني
احدا منهم وكل من يجيب اسارى يجيبهم قدام الخيمة ويقوم

المشاعلية يقطعون رؤسهم وكل من يجيب رأسا يوديه الى
الوزير الاعظم فلما وقف كبيرهم بين يدى السلطان قال له
اما اجتمعت بطومانباى فقال لا والله ما اجتمعنا به وانما وجدنا
شريك وهو سائر الى جهتنا وقاصدنا فقال السلطان فى كم
فارس يكون قال معه الفا فارس من مدرع ولابس وفى الحديد
غاطس وهو امامهم يقول فى نفسه انه يقدر ان يفتح بهم الارض
شرقا وغربا فقال له السلطان انت نظرت شريك الاعور قال
نعم وقربت منه حتى نظرت فى وجهه فقال له السلطان صف لى
صفته فانهم وصفوه عندى مرارا كثيرة فقال ليس هو طويلا
ولا قصيرا وانما هو شرطة الناس وليس هو سمينا ولا رقيقا الا
ان قوائمه كقوائم البعير اعرض ما فيه صدره واكتافه وذراعاه
حنطى اللون عزلى الوجه وليس هو اعور كما يقولون وكما يسموه بالاعور
ولا به حول وانما اذا مال بعينه الى جانب يكون احد بياضها ازيد
من سوادها فلما سمع منه السلطان هذا الكلام قال له صدقت
ثم قال له وهل طال الكلام بينهما حتى تمكنت انت من النظر اليه
فقال نعم حتى انى سألت من جماعة خوشقدم عنه فقالوا اننا
رأيناه باعيننا وهو يمسك فحل الجاموس من قرنه ويجذبه
فيقلعه من مكانه ويلوى قرونه بيديه فيقلبه على جنبه والناس
ينظرون اليه فقال له صدقت انى سمعت عنه ذلك ولكن اذا
نزل القضاء عمى البصر فلا تفيد الشجاعة فسوف ترى انى سأقبض
عليه واقطع رأسه وانت تنظر اليه فان دولتهم قد انعكس
طالعها ثم ان السلطان التفت بكليته الى الحرب وامر ان تمسك جميع
المراكب ويجعلوها صفا واحدا من بر مصر الى بر الجيزة وان
تربط فى بعضها باحكام واتقان وامر ان تعدى العسكر على
المراكب ففعلوا كما امر واخذ معه نحو اربعين الف خيال ومثلهم

مشاة غير اتباعهم ولكنهم نقاوة النقاوة من شجعان عسكره
وطلب قتال الامير طومانباى وترك فى مصر الوزير يونس باشا
وبقية العساكر واوصاهم بحفظ البلد واخذ معه خيربك
نائب حلب واوصى الوزير الذى هو يونس باشا انه اذا جاء
الغزالى برسلة اليه فامر الوزير من وقته وساعته بكتابة مرسوم
الى جانبردى الغزالى يامره بان يعدى من الشرق الى بر الصعيد وان السلطان
سليما يريد قتال السلطان طومانباى وهو مجد له فى الطلب وانه
اذا وصلت اليك تلك المكاتبة تكون على اهبة حتى تجتمع بالسلطان
سليم وتكون انت وهو على طومانباى حيثما يكون وحيث ذهب

ذكر تعدية السلطان سليم الى بر الجيزة

قال فلما عدى السلطان سليم الى بر الجيزة ومعه سيدى محمد
ابن المرحوم السلطان الغورى وكان سيدى محمد قد قابل السلطان
سليما فى اول دخوله مصر على يد اخى جلبى وقاضى العسكر محمد
افندى بحكم وعهد وكتبه له السلطان سليم وحلف له ايضا
انه لا يضره بوجه من الوجوه ابدا ولما قابله اكرمه السلطان
غاية الاكرام وخلع عليه خلعة تليق بالملوك وزاد فى اكرامه حتى
اطمان اليه وصار ياخذه معه فى كل محل ذهب اليه ولما عدى
السلطان سليم الى بر الجيزة كما تقدم وصار يسيرهم على الراحة
لاجل ما معهم من المدافع والضربزانات والاحجار والاثقال
قال الراوى هذا ما كان من امر السلطان سليم وسيره بالعساكر
واما ما كان من امر شربك فانه سار بمن معه حتى وصل الى
بر الجيزة وعن يمينه الامير قانصوه العادلى وسيدى يحيى بن
الامير ازبك والامير دولتباى كاشف الجيزة والامير باردبك
وعن يساره الامير ابرك راس الجلبان والامير تمر الزردكاش
نائب الاسكندرية والامير دولتباى الكبير كاشف الصعيد *

والامير قلج صديق الامير شريك وهم سائرون فقال الامير شريك
والله يا اخوانى اظن والله اعلم ان فى هذا اليوم تقع لنا
مضايقه من قبل عدونا فان قلبى قد جربته ما حدثنى بشى الا
وقد صاد فى الصحيحة ولكن قال العارفون من ثبت نبت
والشجاعة صبر ساعة فبينما هم فى هذا الكلام الا وقد ظهر على
بعد جيش عظيم والسناجق والاعلام فقال لهم الامير شريك
رايتم ما قلت لكم ولكن تاهبوا وقفوا مكانكم واما السلطان
سليم فانه لما عاينهم عرفهم فانه قد جاءه بدوى من عرب الفيوم
واخبره بان شريك الاعور قادم عليك ومعه الفان من خيار
عسكر طومانباى كل واحد فى نفسه يقول انه يلقاك بمفرده
فعند ذلك امر السلطان سليم الرماة ان يبدؤا بالرمى ولما تقارب
الجمعان حمل الامير شريك عليهم حملة واحدة ودكس عليهم فلما
عاينوا ذلك رموا عليهم طلقا من البندق والمدافع والمكحلات
والسبقيات حتى ادوت الدنيا وتزلزلت تلك الصحارى ولا بقى
احد ينظر احدا فهلك من هلك وهرب من هرب وثبت من ثبته
الله ولكن الامراء الذين تقدم ذكرهم لم يهلك منهم احد ولم يهرب
منهم احد بل توكلوا على مولاهم واسلموا امرهم اليه وحطوا ايديهم
فى الروم وقاتلوا قتال من ايس من الحياة وقاتل الامير شريك قتال
الجبابرة فما مضى من النهار قدر نصفه الا وقد تقهقرت الروم الى
وراءهم وراوا من الامير شريك ما لا يرونه من احد غيره فعند
ذلك امر السلطان سليم عسكره ان يتفرقوا عليه من كل جانب
فصار كل من قرب منه هلك لوقته فلم يقدر واحد منهم ان يضربه
ضربة لا بسيف ولا بعود وصار يصرخ فيهم ويقول خلوا عن
الحرب يا علوج الروم وارجعوا الى شوربتكم وبوظتكم ثم
كلمهم بكلام فاحش ذكره للحاج فارس وهو غلامه الذى كان

وراء ظهره بالجنيب قال وقد استقل الروم حتى عجزوا عنه
بجملتهم وايسوا منه ولم يبق احد منهم يقربه فانه كل من قاربه هلك
وهو ينادي ويقول اين انتم يا سليم يا من يريد ان يكون سيد الملوك
والسلاطين ابرز الى الميدان ان كنت سلطان آه يا جبان
يا ابن الجبان يا من يقاتل المسلمين بالنيران ثم التفت عن يساره
فوجد كردوسًا من الروم نحو الالفين واكثر قد احاطوا بالامير
دولتباي كاشف الجيزة فمال عليهم ميلة منكرة فما شعر الروم
الا وهو حاطم عليهم حطمة الاسد الغضبان فانه لما راح السلطان
الغوري بهذه الامراء والعساكر الى مرج دابق كانت عسكره من
جلجولية الى الجون ولا كان احد يقول ان هذا العسكر ينكسر ابدا
ولو اجتمع عليه اهل الدنيا فانه كان كل واحد من هؤلاء الامراء يقول
في نفسه انه مقوم بجيش وحده ولكن لما اختلفت كلمتهم وقامت
النفوس بعضها من بعض ولاحوا على بعضهم فكسروا بعضهم
جبرا وكسروا ملكهم قهرا فلما التحم الحرب مع السلطان سليم لم
يصبروا غير ساعة وهي من طلوع الشمس الى وقت الغداة وكانت
الكسرة عليهم قال الراوي وما زال الامير شربك كلما اسمع الجاووشية
يصيحون على الطوائف ويحرضونهم على الحرب فيعيد وفها فيحمل
بنفسه عليهم حتفا ويقول ان هؤلاء احق بالقتل من غيرهم فانهم
يأمرون الناس بقتل بعضهم ويحرضونهم على ذلك وهم لا يقاتلون
شيئا بل يكبرون العمائم ويجهرون بالاصوات ثم عمد الى ناحية
من الجاووشية وقاتل قتالا لا يدخل تحت الحصر حتى صارت
الرجال مطروحة رزاقا فوق رزاق واما باقي الامراء من الجراكسة
فان كل امير منهم كسر من بين يديه من العساكر ولكن ما ولت الروم
كل الهرب وانما انقهقرت مواكبهم وتنحت كتائبهم وعجزوا العجز
العظيم وذاقوا البلاء العميم لانهم في طول عمرهم ما قاسوا قتالا

مثل هذا اليوم وكان السلطان سليم يتأوه ويتحسر ويتقلق
ويتضجر ويقول ماكنت اظن ان اقاسي من احد مثل ما قاسيت في
يومي هذا ولا كنت اقول اني بهذه العشرة الاف فارس وراجل
التي هي خيار قومي ويتبعها اكثر من عشرين الفا التقي في هذا الاعور
الذي هو في اقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ويفني اكثر عسكري
فقال له خير بك والله يا مولانا السلطان كذلك انا اقول
ماكنت اظن ان شربك هذا بهذه الصفة ولا كنا نعتبره بين الفرسان
ولكن ابرز انت بنفسك للعسكر وازجرهم وامرهم بالحملة لعل ان
يكون بسعدك النصرة لك فعند ذلك خرج السلطان سليم على
عسكره وصاح في وجوه اكابرهم للحرب للحرب ما هذه الفترات
اين تذهبون والى اي ارض تهربون ثم انه صار يوعدهم بالترقي
والعطاء الجزيل ويقول لهم انظروا الهم فانه ما بقي منهم الا نحو
الخمسمائة فارس انزلوا عليهم بجمعكم وابطشوا عليهم بقوتكم ولا
تبقوا منهم على احد واقطعوهم الى ابد الابد واسرعوا في الحركات
فلما تكلم السلطان سليم بهذه الكلمات المعجزات مع اكابر دولته
خرجوا من بين يديه وهم لا يدرون ما يصنعون وصاحوا على
الطوائف المجتمعة وحمل كل صف من ناحية وكانت الجراكسة قد
ايقنوا بالنصر والظفر وما دروا ان في ذلك اليوم الموت الاحمر والبلاء
المنتظر ولكن اذا نزل القضاء عمي البصر وما بقي مع الامير شربك
الا نحو خمسمائة فارس من الالفين الذين كانوا معه واما البقية
فمنهم من قتل ومنهم من هرب ولكن لم يهرب منهم احد من ضرب
سيف ولا عود ولكن انما هربوا من النار ومن البندق والضربزانات
وكذلك الذين قتلوا لم يقتل منهم احد بالسيف الا القليل جدا
وانما قتلوا بالبندق والنار ولما كانوا هزموا الروم ووقفوا
حول الامير شربك وهو بينهم كالاسد وكل منهم يدعو له ومنهم من يقبل يديه

ومنهم

ومنهم من يقبل رجليه لما رأوا منه من الشجاعة التي لا تسمع الا عن عنترة
ابن شداد فصار يسأل عن الامراء ويتفقدهم واحدا بعد واحد
فما وجد واحد منهم قتل ولا جرح ففرح بذلك وانما الذين قتلوا
والذين هربوا كلهم مماليك واتباع واما الرؤس الاعيان مثل
الامير قانصوه العادلى والامير يحيى بن ازبك والامير قانصوه
كرت والامير ابرك رأس الجلبان والامير دولتباى كاشف الجيزة
والامير دولتباى كاشف منفلوط وكان صديقه قلج يساره
ويتحدث معه حتى مر على الامراء المذكورين جميعا وهو يتفقدهم
هل جرح منهم احد فوجدهم كلهم طيبين فقال لهم الشجاعة صبر
ساعة انظروا الما صبرتم كيف ظفرتم وايدكم ربكم فثبتوا نفوسكم
حتى يتم الامر لكم ومن تعب منكم يقف فى مكانه ولا يولى دبره
فيكسر قلب اصحابه ويطمع الاعادى فينا وكلما كنتم حزمة واحدة
كنتم انتم الغالبين فقالوا والله يا امير ليس منا احد هرب لا من
طعن ولا من ضرب فان هؤلاء القوم قد عرفناهم ليسوا بافرس منا
ولا اشجع منا حتى نهابهم وانما ضرورتنا من هذه النار وهذا
البندق والرصاص ومن هذه الضربزانات التى لو رموها على
الجبال لازالوها قال لهم لا اعتبار بشئ من هذا مطلقا والحى
ماله قاتل والانسان اذا فرغ اجله مات وهو على فراشه وقد
قال مولانا سبحانه وتعالى لكل اجل كتاب فلا يزيد العمر بالهرب
ولا بالثبات ينقص العمر يومك يومك طيبوا نفوسكم ولا تجبنوا
فان الله تعالى يكره الجبان واعلموا انكم ما تقاتلون الا عن حريمكم
واولادكم واموالكم وبلادكم فمن قتل منكم مات شهيدا ومن
عاش منكم عاش سعيدا واما هؤلاء فانهم باغون عليكم والباغى
له مصرع فبينما هم فى هذا الكلام وظنوا ان الروم قد بطلت
همتهم عن الحرب واذا بهم قد اقبلوا عليهم زحفا مثل قطع الغمام

فصاح عليهم الامير شريك الحملة اسرعوا يا كرام غير لئام فكان
هو اول من حمل بعدما فرغ منه الكلام ونطح الجيش بصدره
كانه الليث الضرغام فزهت عسكر الروم اول طلق والثانى
والثالث بالبندق والضربزانات حتى صار البندق والانجانازله
كالمطر المدرار والجرا كسة قد التحموا فى الروم حتى صار بينهم
حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجمات ومضايقات ما
عين رأت ولا اذن سمعت وصار لهم وقع بالسيف والدبابيس
على الابدان كوقع مطارق الحداد على السندال او كوقع حوافر الخيل
على الحجر الصوان وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الاذهان وكان
لهم يوم مشهود لم ير مثله فى قديم الزمان وكان الامير شريك
قتاله فى هذا اليوم قتال من استقل كالليث الغضنفر ان مال على
جماعة طحنها او على طائفة مزقها وفى يده سيف يقطع الاعمار
قطعا ويصدع الاكباد صدعا فلم يكن الا شئ قليل حتى انطفت
جمرة الروم وخمدت وكلت حركاتهم وجمدت وردجموعهم الامير
شريك قهرا وزجرا بحد سيفه فتراجعت مواكب الروم بين
يديه الى الهروب وقالوا ان هذا البطل ماله من البشر مطيق ولا
يليق لاحد ان يقاتل هذا السبع الغضنفر فلله دره من بطل
الابطال وهازم الاقيال حتى صار بعض اكابر الروم يدعون له
كما يدعون لانفسهم مما راوا من شجاعته وفروسيته وعلموا انهم
لا يقاومونه لا فى ركوب الخيل ولا فى ضرب السيف ولا فى رمى
السهام وانما عمدتهم على رمى البندق والضربزانات والالات النار
فقال اكابرهم بعضهم لبعض ان القتال مع هولاء الابطال فى الفلا
البطال فتقهقرت الروم الى وراءهم فلا زالوا حتى وصلوا الى
النيل السعيد وقصدوا انفصال الحرب لهم فى هذه الحالة
واذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار فوقفت الروم تنظر الخبر

ووقف الامير شربك ايضا هو ومن معه من الجراكسة ينظرون
وقد بقوا فئة قليلة ولكن كل واحد منهم مقوم بالوف ولو لا
النار التي مع الروم لكانوا افنوهم عن اخرهم فلما قرب الغبار ظهر
من تحته خيل تركض الارض ركضا فقال لهم الامير شربك لا يخلو
هذا الجيش القادم من ان يكون السلطان طومان باي والا فهم
عرب غزالة قد جاوا الينا لنصرة عدونا قال فما تم الامير شربك
كلامه حتى قربت الخيل اليهم وتحققوهم واذا هم عرب غزاله يقدمهم
سلام بن خبير واخوه حماد وهم قاصدون الى العسكر الجراكسة
فلما نظروا الى الامير شربك بادروه بالسب والشتم فلما عاين
ذلك منهم عرف ان الامر صعب فاقتضى رأيه ان يظهر لهم الهزيمة
حتى يتبعوه فاذا اتبعوه وبعدوا عن الروم يرد عليهم وربما ان الروم
يرمون عليهم طلقا فيكون فيهم هلاكهم وكان الامر كذلك
فانه لما اظهر لهم الامير شربك الهزيمة طمعوا فيه وتبعوه فلما
بعدوا عن الروم رجع عليهم الامير شربك رجعة الاسد وقاتلهم
قتال من ايس من الحياة فما ثبتوا بين يديه ولا درجة واحدة
وقد ولوا منهزمين فانه ما بقي بقربه احد الا قتله فما ساعهم
الا الهروب واما السلطان سليم فانه لما رأى العرب تهزمت على
الفور امر الرماة ان ترمي فقالت له الاعيان كيف نرمي على العرب
وقد جاوا لنصرتنا قال ارموا ودعوا كل من فرغ عمره يموت فرموا
عليهم طلقا فاصاب غالبهم فلما رأت العرب ما حل بهم من الروم
اغتاظت قلوبهم وقال بعضهم لبعض انظروا الى هؤلاء العلوج
نحن نقاتل عنهم وهم يرمون علينا بالنار ولا يرحمونا ونادوا
لبعضهم من يريد السلامة يتبع الامير سلاما واخاه حماد فخرج سلام
وتبعته العربان وما سلم منهم الا طويل العمر فما مضى غير ساعة
حتى انعزلت عرب غزالة الى بعد نحو ميل ووقفوا ينظرون ماذا

يكون الامر بين الفريقين فلما عاين الامير شربك ذلك حسب
الحساب انه متى رجع الى قتال الروم تتقفاه العرب وتضايقه
وتعوقه عن مراده فامر الامير قانصوه كرت ان يكون فى مائة
فارس تحت السنجق بن معه فاينما وجد العرب حملوا يلقاهم
بالمائة فارس والعرب بالوف وقد قتل منهم نحو الف او اكثر ثم
حمل الامير شربك والى جانبه الامير قانصوه العادلى والامير
ابرك والامير قلج والامير تمر والامير بردبك والامير ابو يزيد
والامير دولتباى كاشف الجيزة والامير دولتباى كاشف الصعيد
وسيدى يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية فهم صف
واحد كل واحد منهم مقوم نفسه بجيش وحده فلله درهم من
فرسان افراد واتباعهم نحو الثلاثمائة تحطم على الوف مؤلفة
ورماة بالبندق وبالنار على سائر الات الحرب فلما رات الروم
الامير شربك قد رجع عليهم يريد الحرب صاروا يتعجبون منه غاية
العجب وقالوا لاشك ان هذا الرجل مجنون او معه احد من الجن
يساعده واما العاقل لا يلقى نفسه فى هذا الهلاك فامرهم
السلطان سليم بالرمى عليه فرموا اطلاقا حتى صار البندق عليه
كالمطر فلم يرجع عنهم وصار فى حملته حتى حطم عليهم وحط يده
فيهم فصارت تنظر الارؤس طائرة وفرسانا تتساقط وعملوا فى
بعضهم كما تعمل النار فى الحطب وكان النهار قد ولى وغربت الشمس
والح لحا عظيما السلطان سليم فى الحرب وامر اجناده ان يضايقوهم
وكان يرجوا اخذهم فى ذلك الوقت لان غالب عسكر الامير شربك
منهم من قتل ومنهم من هرب وما بقى معه الا الامراء الرؤس
القرانصة وبعض مماليكه فطمعت فيهم الروم غاية الطمع بذلوا
جهدهم فى الحرب فلله در هؤلاء الفرسان القلائل كيف اصطلوا
هذا الحرب بانفسهم فلما عاين السلطان سليم الامر بخلاف ما علم

ودخل

ودخل الليل ايس من اخذهم ونادى فى عسكره بالانفصال فما
كانت غير ساعة حتى رجع عسكر الروم تحت سنجقهم وصار الامير
شربك يشتمهم ويقول لهم بلسان تركى اذهبوا الى شورتكم
يا علوج الروم يا كفرة يا فجرة وعسكر الروم ايضا تشتمه وتقول
له ان شاء الله تعالى يا معرص نقطع رأس طومانباى ورأسك
ونخليهم تحت ارجلنا مثل رأس الكلب وننيك امرأتك وامرأة غيرك
يا نصرانى يا ابن النصرانى يا كبشة حرامية يا عرصات يا ملاعين
يا خنازير ايش لكم نسبة بالسلطنة او الامارة يا كفرة يا مماليك
لو كان على رأسكم دولة كنتم تعملون سياسا عند سلطاننا لان
سلطاننا خير السلاطين وسلطان الخواقين ونحن غزاة الاسلام
وعززنا الله على الاعراب والاعجام كلنا مجاهدون مع الكفار
والفجار وما نحن مثلكم اشرارا ولا كفارا لعنة الله عليكم وعلى
من اتبعكم الى يوم القيمة فرجع الامير شربك لينظر محلا ينزل فيه هو
وجماعته فقال له الامير يحيى بن الامير ازبك صاحب بركة الازبكية
انزلوا على شاطئ النيل تجاه عدونا فقال الامير شربك هو رأى
صواب غير انى عندى رأى اصوب منه وهو ان بالقرب منا بركة ماء
على الطريق فربما ان السلطان طومانباى يرسل لنا احدا او يأتى
هو بنفسه فلا ينظر الينا ولا يعرف فى اى جهة نزلنا فاستصوبوا
رأيه فما لبثوا غير ساعة الا وقد اقبل عليهم خمس فوارس من عند
السلطان طومانباى فاجتمعوا بالامير شربك واخبروه ان
السلطان نازل على دهشور وهو مشغول الفكرة عليكم وما جاء
عنكم خبر الا عند الغروب فهمّ ان يأتى اليكم فرأى النهار قد ولى
وبلغه ايضا ان عرب غزالة قد جاءوكم مساعدة لعدوكم فساء
ذلك وانقبض خاطره وبقى متحيرا فى نفسه فقال الامير شربك
ليته قد جاءنا فى ذلك الوقت والله لو جاءنا وقت الحرب لاسعفنا

بالطعن لهم والضرب لاخذناهم عن آخرهم فان الروم ليس لهم عزم
ولا قوة الا رمي النار ولما بطل رمي النار ولم يبق الا السيف والعمود
م عاد لهم قدرة على ذلك ولو ان السلطان طومانباي صح عنده الرأي
كان نجاتنا على الفور ولكن الله اعلم ان دولتنا قد ولت وانقضت
فاني نظرا ان الراي والصواب ننساه ولا نعرفه حتى يفوت وقته
واوانه والراي الخطأ نتبعه فهذا دليل على الزوال ولا شك ولكن
لا دافع لله فيما قضى والله تعالى يعلم اننا لم نقاتل في حظ
انفسنا وانما قتالنا عن انفسنا وحريمنا وعن ديارنا واموالنا
واولادنا فانه قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز فمن اعتدى
عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم والله تعالى يعلم انهم
باغون علينا وقد قال تعالى ثم بغي عليه لينصرنه الله وقد سلمنا
امرنا اليه تعالى وهو يفعل في ملكه ما يريد ويحكم في خلقه
ما يشاء ثم قال له القاصد ان السلطان امرني ان ساعة وصولي
اليك لا اتاخر ساعة واحدة وتحصله على ضيعة وردان فانه
ينتظركم هناك فعند ذلك امر الامير شريك بالرحيل ليلا وترك
الحرب واختار الهروب وقال من كان منا يتبعنا وقام من ساعته
وامر بالرحيل خوفا من سطوة سيف السلطان سليم فلما بلغ
مناه وتخلى عن دعواه قال له بعض الامراء فان تبعنا العدو في
هذا الليل كيف نصنع فقال لهم وهل سمعتم ان الروم تقاتل
ليلا ابدا وما رأيتم لما ان دخل الليل كيف بيتوا اين عقلكم فلما
ساروا ومروا على الروم من بعيد لم يخرج اليهم احد وقال
السلطان سليم لا احد يتبعهم منا فانهم ربما فعلوا ذلك مكيدة
لكم وحيلة عليكم وفرح السلطان سليم بمرورهم لجهة البحر
المالح فلا زال الامير شريك سائرا طول الليل الى ان طلع النهار
وهم في الوراق واذا بالسلطان طومانباي نازل هناك فلما رأوا

على بعد امر السلطان جميع من معه من العسكر ان يذهبوا الى ملاقاة
الامير شربك فارس الزمان فلاقته العسكر احسن ملتقى ودعوا
له وفرحوا بسلامته فلما قرب من السلطان اراد ان ينزل عن
فرسه فاقسم عليه السلطان طومانباي ان لا يترجل احد منهم
عن مركوبه فامتثلوا قوله وسلموا عليه وهم على ظهور الخيل وسار
السلطان طومانباي والامير شربك عن يمينه والامير قيت الرجبي
عن يساره ومن ورائه الامير ابرك راس الجلبان والامير قانصوه
كرت فلما وصل السلطان الى اوطاقه ترجل عن جواده وترجل
الامير شربك وبقية الامراء والاجناد وجلس السلطان على الارض
من غير كرسي وكذلك الامير شربك وبقية الامراء على قدر مراتبهم
فقال السلطان للامير شربك اخبرنا يا امير بما وقع لك من الروم
وبما فعلت في محاربتهم فقال الامير شربك والله يا مولانا السلطان
وقع لنا معهم حرب يشيب الاطفال في المهد يلين لعظمته الحجر
الجلمود وكنا نحن الظافرين عليهم والغالبين لهم وقد كسرناهم حتى
رميناهم البحر ولكن ما سلمنا من عرب غزالة فانهم هم الذين عاقونا
عن مطلبنا وصدونا عن مقصدنا ومنعونا عن غرضنا واني والله
العظيم رب زمزم والحطيم لو ثبت معي الالفان الذان خرجت بهم
من عندك ما كنت رجعت عنهم وكنت قسمتهم قسمين قسم يقاتل
الروم وقسم يقاتل غزالة وماكا بتنا الا في مصرنا ولكن ما شتتهم
الا هذه النار التي يرمون بها فما يشعر الانسان الا وهو مضروب
بها وما يعرف من اي جانب جاءته فان غالب عسكرنا لم يقتل منهم
احد بالسيف الا القليل ولكن هذا ما جرت به المقادير من الرب
القدير ونسأله اللطف والتدبير الا له الحكم واليه المصير ثم قال
الامير شربك والله يا مولانا السلطان لو حزمت امرك وضبطت
رأيك لكنت لما سرت انا والالفا فارس وقاتلت العدو وصبرت انت

وسرت وجئت بشئ يسير من خلفى و قاطعت على العدو ومن ورائهم
لكنا اخذ ناهم مواسطة من قبل ان تأتيهم بقية العساكر وعربان
غزالة وماكابتنا الا فى مصرنا وكان انفصل الامر بيننا وبينهم
وارتاحت قلوبنا من هذا العنا فان السلطان سليما كان معه
نحو عشرة الاف وكانوا نقاوة عسكره واتباعهم نحو العشرين
الفا ولكن ماكنت انظرهم فى الميدان الا كالبهائم ليس فيهم من
يسوق حصانه فى حومة الميدان الا ان يكون جركسيا منا من
الذين خانوا ابناء جنسهم وذهبوا اليه فالله يخون الخائن والله
اعلم ان دولتنا دعائمها قد مالت وايامها قد زالت والى ارى
ان الرأى الصواب ننساه ولا نذكره حتى يفوت ويمضى حكمه وان
الرأى غير الصواب نتبعه ولو تعلق بالسما وهذا مما يدل على
الاضطراب والانقلاب فنعوذ بالله من العكس فى الاسباب
التى توجب الى الذهاب من غير اياب ومن عظم مصيبة تحير فيها
عقول ذوى الالباب فقال له السلطان طومانباى دع عنك
الافكار والغم بما فات واعمل الرأى فيما هو آت فقال الامير قيت
الرجبى صدق السلطان فيما قال اضربوا لكم رأيا فيما تفعلون فان
العربان صارت كلها اعداء لنا وعونا لعدونا وليس فيهم من
يقاتل معنا ولا يكافح عنا لانه ما منهم احدا الا من قتلنا اما ابا
واما اخاه واما ابنه واما ابن عمه واما واحدا من اقاربه وذلك
لما كانوا يعصون علينا فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثاره
القديم واما عدونا فانه قد جاءهم جديدا وليس بينه وبينهم
شئ من العداوة ولا نالهم منه الا الخير فانه تذهب اليه اكابرهم
فيعطيهم ويرضيهم ويعلق آمالهم بجزيل المطامع ويحلف لهم
انه لا يؤذيهم ولا يقتل منهم احدا ولا يأخذ منهم خراجا وانما
يأخذ منهم العشر ويحكم بينهم بالعدل ولا سيما معه هذا ان

الشيطانان

الشيطانان الخبيثان خيربك والغزالي وهما يراسلان شيوخ العربان
ويقولان لهم هذا ملك عادل مسلم ابن مسلم وسلطان ابن سلطان
الى سابع جد ويحب الخير والانصاف ويكره الظلم والاسراف
ويميلان قلوب الناس اليه ويعطفونهم عليه ويسميانه بالملك
العادل ويشكرانه لكل احد عاقل وجاهل وبعد هذا فما بقى لكم من
الراى الا ان ترسلوا قاصد القبيلة غزالة التى هى اشد القبائل
علينا وتوعدوهم بكل خير فلعل ان يميلوا الينا ويطيعونا فان
حصل ذلك كان خيرا وان ابوا فالاستعانة بالله خير لنا من كل
احد وغاية الامر الموت فانه امر لابد منه فعند ذلك امر السلطان
طومانباى بكتابة كتاب الى عرب غزالة فاول ما بدا فيه بشيخهم حماد
ابن خبير ويخوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى وحلف لهم
ان اطاعوه ودخلوا فى طاعته ليقابلنهم باحسن مقابلة وان
لم يقبلوا ذلك يكفوا عن قتالنا ولا يعارضونا فى قتال عدونا
فانهم كانوا يجتمعون على بعد من الحرب ويرسلون من ينظر لهم الخبر
فلما تقع الكسرة على الروم يرمحون رمحة واحدة على الجراكسة من
خلف ظهرهم فيضيقون علينا من هزيمة عدونا فلما ترى الجراكسة
الامر قد جاءهم من خلفهم يرجعون عليهم ليكفوهم عن انفسهم
ويردون عليهم فتصير الجراكسة فى الوسط فبهذه الوسيلة تغلب
الجراكسة غاية الغلبة فلما وصل كتاب السلطان طومانباى الى
حماد بن خبير مع رجل يسمى محمد شيخ البكاديرة قراه حماد بن
خبير وعرف مضمونه واعطاه لاخيه سلام فقراه الاخر وعرف
مضمونه قال سلام لمحمد شيخ البكاديرة انت يا محمد ما تعرف ما جرى
بيننا وبين الجراكسة وما قتلوا منا وكم يعطونا الامان ثم يغدرونا
فقال له محمد انما كان يفعل ذلك السلطان الغورى واما هذا
الرجل طومانباى فانه رجل صالح وفارس فالح وما سمعنا عنه

لاحد سوءا ابدا وانا ضامن لك عهدته فانه رجل صادق في
قوله وليس هو كالغوري فقال له سلام واخوه حتى ننظر
ان كانت العرب تطيعنا اولا ثم نادى في جميع عرب غزالة ان
تجتمع الاعيان منهم فاجتمعوا كلهم فقرأ عليهم كتاب السلطان
طومانباي فلما سمعوا قاموا كلهم قومة واحدة وقالوا لا سمع له
ولا طاعة ولا بيننا وبينه الا السيف فقال محمد شيخ البكارية
يا وجوه العرب اما ما قلتم عن السلطان الغوري فانه كله صحيح
وقد نظرتم كيف اخذه الله تعالى واما هذا الرجل طومانباي
فهل سمعتم عنه شيا من الظلم والبغي قديما وحديثا فقالوا
لا ما سمعنا عنه سوءا ابدا لا في زمن الغوري ولا في هذا الآن
وانما هذه الطائفة دولتهم قد زالت وولت واوقاتهم مالت
وايامها ولت واعزاؤها ذلت ولو قمنا معه ونصرناه لا يفيد
ذلك بعد ان ولت دولته وان تركنا نصرة السلطان سليم
واعتزلنا لا نسلم من عتبه علينا فيما بعد ذلك بل ولا نامن على
انفسنا منه فانه صاحب الباس الشديد والاولى ان نجعل لنا عنده
يدا نامن بها على انفسنا فيما بعد وبعد ذلك لا تطل علينا في الكلام
واقتصر في الجواب فما بقي لك معنا كلام والسلام فلما ايس
منهم اثنى راجعا الى السلطان طومانباي واخبره بذلك فقال
لهم الامير شريك الان قد بان لكم صحة قولي فقالت جميع الامراء
والله ان رايك في جميع الامور هو الصواب من يوم الريدانية
وانت تقول لا تدفنوا المدافع في الرمل وكان بردي الغزالي يقول
الصواب دفنها حتى لا ينظرهم احد وانما كان ذلك منه مكرا
وعنادا فلا لقاه الله خيرا فامنت جميع الامراء على دعائه عليه
وكان كذلك فلم يلق نصرا الى ان قتل اسوء القتلات وسياتي
خبر قتله فيما بعد ان شاء الله تعالى فقال لهم السلطان طومانباي

يا امراء

يا امراء يا اغوات الراى عندى أن نتوكل على الله ربنا سبحانه وتعالى
فان الامر بيده وما يضرنا اذا امتنا شهداء فان الله تعالى يعلم انهم
قد بغوا علينا وقد قال تبارك وتعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين
فما بقى لنا الا التسليم لله فى الامور كلها ونقاتل الى ان نقتل والسلام
واما حريمنا وذريتنا فالذى خلقهم هو ارحم بهم منا ثم قال يا قوم
نحن اقمنا ههنا يومنا وقد ثقلنا على اهل هذه القرية من جهة الاكل
والعليق والراى ان نرحل الى قرية ام دينار ثم امر السلطان بالرحيل
وقام من وقته وساعته فقامت جميع الامراء الذين بقوا معه من
الاعيان رأسهم الامير شربك والامير قانصوه العادلى والامير
قانصوه كرت والامير تمر نائب الاسكندرية والامير دولتباى
والامير ابرك رأس الجلبان وباقى الامراء الذين تقدم ذكرهم فما كانت
غير ساعة حتى وصلوا ام دينار وتلقاهم اهلها احسن ملتقى وباتوا
تلك الليلة فلما اصبح الصباح قدم عليهم خيال من اهل تلك البلاد وهو
يصيح بهم الخيل قد اخذتكم فما استتم كلامه حتى اظلم البر من شدة
الغبار وكثرة الخيل فلما لاح لهم ذلك الغبار ركبوا وخرجوا الى
الحرب والقتال فالتقوا من غير ترتيب اليمين والشمال والتقى الجمعان
فوقع بينهم من الحرب ما يعجز عنه الوصف فلله در الامير شربك
وقانصوه العادلى وما فعلوا هذا اليوم مع هذه الجموع واما الامير
قيت الرجبى فانه تصادم مع قانبردى الغزالى فى حومة الميدان
فاقتتلا قتالا شديدا حتى تحيرت النظار فيما وقع بينهما من الحرب
ثم تقارب بعضهما من بعض حتى تقابضا بالاطواق فلم يقدر قانبردى
الغزالى ان يقتلع قيت الرجبى من سرجه مع انه رجل كبير السن فى عشرة
التسعين وقد قعد فى الحبس محبوسا سنين ومع ذلك لم يتغير
له لون فعلم الغزالى من نفسه الخسة ودخل عليه الجبن وقال

فى نفسه اذا كان هذا فعل هذا الشيخ الهرم فكيف لو وقعت مع شربك
ثم انه شجع نفسه واطلق الامير قيت الرجبى ثم بعد عنه واستعدل
عليه بطعنة بقنطارية من وراء ظهره قلبه عن جواده واراد
ان ينزل ويقطع رأسه واذا بفارس صرخ عليه صرخة افلجه
وطعنه طعنة اسرع من خروج السهم من كبد القوس فوقعت
فى خاصرته قلبته عن جواده وانثنى ذلك الفارس راجعا الى الحرب
والقتال فالتهى الغزالى بنفسه عن الامير قيت الرجبى فبادر الامير
قيت الرجبى الى حصانه فركبه ودكس خلف ذلك الفارس الذى
كشف عنه فاذا به الامير شربك فدعى له من صميم قلبه واراد ان
يكون معه فى القلب وما زال يشق الصفوف ويفرق الالوف حتى
عجز وكل وبطل جواده وكلت سواعده فلما علم من جواده العجز التفت
وانثنى راجعا حتى خرج من المعركة فوجد خيلا اقبلت من كبد البر
لا يحيط بها الحصر واذا بهم عرب غزالة كان رسم لهم السلطان سليم
انهم يجتمعون مع العسكر هناك ويقاتلون الجراكسة فصادفوه على
هذه الصفة وقد بطل حصانه فرشقوه بالحراب فمنع عنه اللبس
فصادفه منهم سهم دخل فى فؤاده فوقع على وجه التراب فنزلت عليه
النهابة فعروه واخذوا ما كان عليه وقتلوه هذا ما كان من امر قيت الرجبى
واما الغزالى فان مماليكه سارعوا اليه لما رماه الامير شربك وحملوه
الى وراء حتى ادخلوه فى الوطاق واسقوه السكر ووجدوا جرحه
سليما واما الامير شربك فلا زال يقاتل قتال الجبابرة والفراعنة
حتى كل من تحته الجواد وتضاعف على الجراكسة المدد والاعداد وفاض
بحر الروم حتى ملأ السهل والواد وقصرت الطائفة الجراكسة لتقصيره
لانه كان هو طنبها والعماد وكثر القتل فى الجراكسة وزاد وطلعت
عليهم العربان التى فى تلك البلاد وصاحت عليهم المدافع والبنادق
وملأت الفؤاد وفى كل دمى كانت تتزلزل تلك البلاد فحضرت صفوف

الروم كالبحر الزاخر وبقيت الاحجار والرصاص نازلة كالامطار وصارت
المدافع صائحة والحديد مع الاجساد والروس طائرة قال الراوى
كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين فى الشام وجاء
معه بمصر ستمائة منهم مائة وخمسون مدفعا كبيرة والبقية
ضربزانات كان طول كل واحدة خمسة وعشرين شبرا وكان يسحب
كل واحد من الصغار اربعة رؤس خيل واما الكبار فكان كل واحد
يسحبه ثلاثون او اربعون من الخيل وكان كل واحد منها مكسيا
بجوخ احمر ولما دخل مصر كان اول المدافع فى الريدانية وآخرهم
فى الخانقاه وكان عسكره كالنمل فى الوادى وكان على يمينه خيالة راكبون
كل واحد فى يده مزراق وفيهم بيارق حمر نحو عشرين وخمسة
وعشرين الفا ومثل ذلك على شماله كلهم خيالة ببيارق صفر وقدامه
من البكجرية نحو عشرين صفا كل صف لا يعد وقدامه صفوف
بالاعلام والطبلخانات والوزراء والباشوات وكل من جابوه من الجراكسة
يقطعوا قدامه وان كان رجلا كبيرا وميرا شيعوه مكتفا الى
السلطان سليم ويقطعون رأسه قدامه وهو واقف فوق
الحصان وقدامه مكشوف والسعاة قدامه بطاسات من ذهب
عوارز بعمائم وفرقة فى روسهم الريش الابيض مشاة وفى ايديهم
سهام يسمونها صولاق كلهم كانوا يقفون قدامه مربوطين الايدى
وهم ينظرون الى الارض بادب وفى رواية سبعة اعلام باسما
اجداده مكتوب عليها اسماؤهم بالذهب واربعة وعشرون
علما باسم السلطان سليم وكان مكتوب فى بعضها انا فتحنا لك فتحا
مبينا وفى بعضها نصر من الله وفتح قريب وكان معه علم ابيض
اكبر من سائرها سألت عنه فقالوا علم الاسلام ورجع الى سياق
الحديث وهم اى الجراكسة فى ذلك الحرب الشديد والقتل المزيد
اذ لاح لهم غبار حتى سد الاقطار فتنحى كل فريق عن الآخر حتى زال

ما تحت ذلك الغبار فما مكثوا غير ساعة حتى وصل اول الخيل وهم
يتصايحون بالقيس نحن فرسان غزالة ذو الكفو والكفالة اليوم
ترون يا بنو جركس الموت الاحمر وتذوقون من سيوفنا الوبال
الاكبر ونفني جمعكم وتفرغ كثرتكم ونقطع اصلكم وفرعكم وكان
المتكلم بهذا الكلام اميرهم وكبيرهم سلام بن خبير واخاه حماد وهما
كبراء القوم فقصد سلام بن خبير الامير قانصوه كرت فوقع بينهما
انداب من الحرب تحير الناظرين وحمل كل واحد منهما على صاحبه واظهر
فنونه وعجائبه وحملت فرسان غزالة على الجراكسة حملة واحدة
وحملت الروم من الجانب الاخر واخذوهم مواسطة فلا تسأل عما
قاسوا من الحرب والطعن والضرب في ذلك اليوم فضايق سلام
بن خبير الامير قانصوه كرت حتى رماه البحر وما بقي معه سوى عشرين نفرا
من مماليكه والذين مع سلام نحو الالف او اكثر ولما وقع الامير قانصوه
كرت في البحر ثقل على الفرس من لبس الحديد وقد كان الفرس قد كل من
الجري فلم يقدر ان يعدي الى ذلك البر فغرق هو وفرسه وغالب
مماليكه وذهب تحت المياه وما سلم منهم الا القليل فكان رحمه
الله حسن السيرة والاخلاق وكان اذا رآه الانسان يقول تبارك
الخلاق واما سلام بن خبير فانه رجع على الجراكسة رجعة منكرة
وهو ينادي يا لاخذ الثار فوجد شريك على ما هو عليه من الحرب الشديد
فلله دره من فارس الاعداء فارس في ماتي فارس يقاتل الوفا
فوقعت الجراكسة في كفة النقصان فبينما هم كذلك وفي هذه
الحالة واذا بعجاج قد ارتفع وارتفع الغبار وثار من ناحية ارض
وردان وهم يصيحون بالنصرة لآل عثمان اليوم يا بني جركس نذيقكم
الهوان ويحل بكم النقصان فنظروا اليهم واذا هم قابردي
الغزالي ومن معه قد جاؤهم من جهة اخرى فبقيت الجراكسة
لا يعرفون من يقاتلون والى اين يذهبون قال صاحب الحديث

غزالة

ان القوم

ان القوم لما وصلوا ضربوا لهم ميدانا ثم ان الامير قانبردي الغزالي
المارق من ابناء جنسه برز الى حومة الميدان ونادى باعلى صوته
يا آل جركس نظرتم قوتكم وشوكتكم ونظرتم ما تكون دولة آل
عثمان ودولتكم اين شجعانكم اين فرسانكم اين سلطانكم عرفتم
مقداركم وندامتكم وانا احد عبيد لحضرة السلطان سليم الملك
العظيم صاحب القوة والجيش الكاسر منتشر العساكر قاهر القياصرة
كاسر الاكاسرة قاتل الفراعنة والجبابرة اما معكم احد من الشجعان
يبرز الى الميدان فقال السلطان طومان باي للخاصكي الذي بين يديه
ابرز اليه فبرز من وقته ولما صار في ساحة الميدان قال له ذلك
الفارس الذي هو قانبردي الغزالي يا خاصكي ان روحك ضيقة
عليك حتى جئت بها الى الهلاك استغنم السلامة وارجع الى اهلك
فقال له الخاصكي وانت من اين يا انجس العرب حتى تبهتني بهذا الخطا
فان قانبردي الغزالي لما جاء في هذه المرة لبس لبس العرب وتكلم
بكلامهم وتلثم حتى لا يعرف فما ظنه الخاصكي الا بدويا من عرب
غزالة ثم ان الخاصكي قام في سرجه وطعن طعنة بالمزراق
فخرج من يده كالبرق الخاطف فلما نظرها قانبردي الغزالي جاءت
قاصدة صدره انحرف لها في ظهر الجواد وخطفها من الهواء ثم صاح
على الخاصكي خذ حربتك فانك مقتول بها ثم هزها وطعنه بها ففطس
عنها الخاصكي فصبر عليه حتى استوى على سرجه وعاجله بها قبل ان
ينظرها فوقعت في نحره فوقع على الارض طريحا ثم ان قانبردي جاء
في الميدان وطلب البراز كل ذلك ولم يعرفوه الجراكسة وما يظنونه
الا بدويا من الفرسان المخبورة فانهم لو عرفوه لرموا بانفسهم عليه
جميعا وقطعوه بسيوفهم فانه اول من خانهم واغرى عليهم اعداهم
هو وخيربك فانه لولا هذان الاثنان ما كان السلطان سليم يجوز
ويدخل ارض مصر مع انه كان لا يتنزل عليه بعد اخذه ارض مصر ان

يعمل باشا من جانبه احدا من الجراكسة ولا يعطى لاحد ذلك من امراء الجراكسة لتقدم طاعته فانه كان له عزم وبأس وعظمة وتكبر وتجبر وكان قهارا سفاكا للدماء ما كان يرحم فى محل السياسة ولا يشفق لا على كبير ولا على صغير وكانت همته اذا عاش ان يأخذ الربع المسكون من ايدى الملوك المتنوعة ويصير هو سلطانا على جميعهم وكان سبب مجيئه الى مصر كثرة العناد الذى كان حصل من الامراء وقتل الاولاقية وعدم طاعته على السكة والخطبة باسمه وكان محركه خيربك ولكن لكل شئ آفة من جنسه فان تيمورلنك لما خرج على الملك الناصر فرج بن برقوق اخرب حلب والشام واطلق فيهما النار بعد ان نهب جميع ما فيهما ولا قدر ان يجوز ويدخل مصر وفى الحقيقة ان السلطان سليم زاد على تيمورلنك بهذه المدافع والبنادق والضربزانات التى اذا سيبوا منها طلقات تزلزل الدنيا وترعب القلوب ولكن اذا اراد الله بامر هيأ اسبابه ونرجع الى سياق الحديث فلا زال قانبردى الغزالى تبرز اليه الفرسان واحدا بعد واحد حتى قتل منهم عشرة فهابته الفرسان وقالوا قد تعجبنا من هذا الانسان فما عرفنا هل هو من الانس ام من الجن فقال لهم قانبردى يا آل جركس اريحوا انفسكم وابرزوا الى سلطانكم طومانباى اما ان يقتلنى واما ان اقتله فلما سمع السلطان كلامه تعجب منه وقال الا تنظرون الى قوة هذا الفارس واقدامه وشجاعته وكثرة كلامه فهل فيكم من احد يكفينى شره فقال قلج انا يا مولانا السلطان فقال ابرز اليه وخذ حذرك فانى اراه سريع الحركات ولا يخلو ان يكون بطلا من الابطال المخبورة ولولا ان فرسى قد بطل لبرزت اليه ولا اظن ان فيكم احدا يقاس به فى فروسيته فقال له قلج انا اكفيك شره بعناية الله تعالى ثم برز اليه قلج وكان من الامراء الاربعين وقد كان تعين له ان يصير امير مائة

مقدم الف موضع الامير كرتباى الوالى ولو كان الامير شربك حاضرا
فى ذلك الوقت ما تركته يبرز الى هذا الفارس فانه كان من شدة
محبته له يفديه بنفسه فى كل امر صعب وفى الحقيقة ان الجراكسة
لو عرفوا ان هذا الفارس هو قانبردى الغزالى ما برز اليه الا
السلطان طومانباى بنفسه او الامير شربك فانهما يرجحان عليه
فى الفروسية ثم نزل اليه الامير قلج وحمل عليه فوقع بينهم من الحرب
اشد الحرب حتى تعجبت الناس من هذين الفارسين ثم ان الامير قلج ضرب
قانبردى ضربة على راسه بالسيف فقطعت الخودة ونزلت الى
الرفادة والستاير فجرحته جرحا خفيفا فضرب قانبردى الغزالى
ضربة الى يمين الامير قلج فابراها كما تبرى القلم فوقعت الى الارض
هى والسيف فبهت الامير قلج واندهى وتخيل فهجم عليه قانبردى
وضربه اطاح راسه عن جسده فلما عاينت الجراكسة ذلك عسر
عليهم قتل الامير قلج وقالوا ما يقايس هذا البطل الا الامير شربك
او السلطان طومانباى ثم ان هذا الفارس جال فى الميدان يمينا
وشمالا وصار يعجب بنفسه ويتمايل فى ظهر فرسه وصار يشتم
الجراكسة بالعربى ويقول لهم يا لئام غير كرام من يقاوم السلطان
سليمان يقاوى سلطاننا او يثبت بين يديه يا كفار يا فجار واغلظ
فى كلامه حتى الجم قلوبهم وكل ذلك ولم يعرفوا انه قانبردى الغزالى
وقال لهم اذا كان سلطانكم يزعم انه فارس او يقاوم الفرسان
فليبرز الى حومة الميدان وينظر نفسه ان كان يربح او يقع فى كفة
الخسران فقال له السلطان طومانباى ها انت جئت الينا هات ما عندك
من فروسيتك وشجاعتك ولا تبق ممكنا فان السلطان طومانباى
قد تفرس فى القتال وصار القتال سجيته وصنعته فما بقى يتكلف
لشئ ثم ان السلطان طومانباى قال له انظر يا اغا العرب لا اقاتلك
ولا احاربك حتى اتكلم معك كلاما لعل ان يكون فيه صلاح لك فقال

له قل ما عندك فقال له السلطان طومانباى اريد منك ان تخبرني
من انت اولا وما الذى حملك على قتل فرسانى من غير اذية سبقت
منى اليك فانى والله ما ادركت نفسى ولا اعلم انى بغيت على احد
ولا ظلمت احدا ولا افتريت على احد وما امر سلطنتى هذه والله ثم
والله لم يكن فى غرضى ولا خاطرى وانما الامير علان والامير كرتباى
الوالى والامير شربك ابرموا على وقالوا لا نرضى لهذا الامر الا انت
فعلمت انه امر ابتلانى الله تعالى به واما هذا السلطان سليم الذى تكلم
انه ملك عادل وانه لا يحب الجور كيف يجوز له ان يتعدى علينا
ويرمى علينا بالنار والمدافع والاحجار ويقتل رجالنا ويسبى نساءنا
واولادنا ونحن مسلمون مؤمنون موحدون قائمون بحماية الدين
فلما ان بغى علينا وتعدى حده وجب علينا ان نقاتل عن انفسنا واولادنا
وحريمنا واموالنا وفى ذلك اذن من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى
فى كتابه العزيز وهو اصدق القائلين فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم الاية ونحن فى الزمن الاول قدرنا عليهم مرارا
وعفونا عنهم وهم الآن قدروا فما عفوا وملكوا فما رحموا وفعلوا فينا
ما لم يفعلوه فى عبدة الاصنام والصلبان وهم جيرانهم ومحانون لهم
واما نحن فانا مسلمون موحدون فانى سألتك بالله تعالى وبمحمد رسوله
صلى الله عليه وسلم ان تكون معنا ونكون نحن وانت اخوانا من الآن
او تتركنا لا لنا ولا علينا ونحن نستعين بالله تعالى عليهم وتكفينا شرك
وان اخترت الحرب والقتال فانى لا اقاتلك الا ان عرفتنى بنفسك فانك
قد قلت لا تريد الا انا فها انا قد جئتك بنفسى فعرفنى بنفسك واكشف
لثامك فانى متحير فيك واشكل على امرك فلا انت بدوى تعرف ولا جركسى
تعرف وكلامك لا يشابه كلام الروم ولا كلام العرب وانى اقسم عليك بالله الذى
خلقنى وخلقك الا ما اخبرتنى من انت فكشف له اللثام فاذا هو
فانبردى الغزالى فلما رآه السلطان طومانباى غاب صوابه من شدة

القهر وقال له يا ابن الف قرنان ونسل اولاد الزنا اللئام يا خبيث
يا ملعون يا ابن الملعون يا خائن يا ابن الخائن ولهذا تبعت الخوان
فان الذى ذهبت اليه وصرت من حزبه شهرته الخيانة فان اسمه
سليم خان ومن خان لا كان وانت ايضا قد عاهدتنا وخنتنا وعاكستنا
واغريت علينا اعداءنا فيا لله العجب كيف طابت نفسك الخبيثة
بذلك ولكن صدق الله العظيم الخبيثات للخبيثين الاية ثم ان السلطان
طومانباى حمل عليه حملة منكرة فما ثبت بين يديه الا وقد طعنه
السلطان طومانباى طعنة بقنطاريته قلبه عن ظهر فرسه
ثم وضع القنطارية على صدره واراد ان يقتله بها فقال له انى
سألتك بالله تعالى وتوسلت اليك برسول الله صلى الله عليه
وسلم وبسر شيخك سيدى ابى السعود الجارحى ان تجعلنى عتيقك
فى هذا اليوم فلما سمع السلطان طومانباى ذلك القسم رق
قلبه له وذلك من كمال ايمانه فقال له على شرط انك تكفينا شر
هذا العدو الذى جئت به الينا وبشرط انك لا تسحب فى وجه احد
من آل جركس سيفا فحلف له الغزالى على ذلك وقد شدد عليه فى
الايمان فعند ذلك رفع السلطان القنطارية عن صدره وقال له
قم يا خبيث فقام الغزالى وهو ينفض التراب عن راسه وجاء الى رجل
السلطان وقبلها فى الركاب ودعا له وهو يكاد ان يبكى ندما على ما فعل
وسار الى فرسه وركبها وقال لجماعته ارجعوا عن القتال فقد حلفت
له انى لا اقاتله وانى واف له بالايمان ولكن اخاف اذا رجعت اليه
يقتلنى وانى راجع من هنا الى محل آخر اقيم الحرب فيه واعز الملبوس الذى
رأنى لابسه واما طومانباى فانى لم اره الا اذ دولته قد زالت لانه
لو قتلنى لاكتفى شرى ولكنه قدر على وعفى عنى الى ان وصلت السكين
الى العظم ثم انه قصد نحو سنجق السلطان سليم وفى هذه الساعة
وصلت العساكر التى خلاها السلطان سليم مع الوزير يونس باشا

فى مصر لما عدى الى بر الجيزة لقتال الامير شربك وطومانباى
وكان السبب فى قدومهم ارسال مكاتيبه الى يونس باشا فى
الليلة الماضية يأمره بان يعدى الى بر انبابه بجميع من معه من
العساكر ولما وصلت هذه العساكر فى تلك الساعة الى السلطان سليم اشتد
ظهره وقويت نفسه واما السلطان طومانباى فانه لما عفى عن
الغزالى ورجع الى سنجقه لم يرتحته الا جماعة قلائل من مماليكه
وبقية الامراء تشتتوا فى الحرب والطعن والضرب ولكن الكثرة غلبت
الشجاعة فلله درهم من فئة قليلة تقاتل هذه الجموع والعساكر
التى لم يعلم لها اول من آخر فاندهشت عقولهم وتحيروا فى امرهم
فقال لهم الامير شربك والامير قانصوه العادلى يا آل جركس اثبتوا
فان القتال ليس بكثرة العدد والمدد وانما هو بزيادة الصبر والجلد
واقرؤا قوله تعالى كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله
والله مع الصابرين وها انا امامكم وفريد عصره السلطان طومانباى
نصره الله تعالى يرد عنكم فدونكم والحرب مادمنا فى قيد الحياة فلا
تخافوا من احد ولا يغرنكم كثرتهم فانى وعزة الله تعالى لولا هذه
النار التى معهم لقاتلتهم بنفسى ولا اكترثت منهم احدا فانى ما رأيت
فيهم فارسا يعجبنى كره وفره ليس لهم باس الا بهذه المدافع والبندقيات
وذلك لا يفيد منهم شيئا لان كل انسان جعل الله له عمرا لا يزيد
بهروبه ولا بثباته ينقص وقال العارفون الشجاعة صبر ساعة
واذا هم بغبار قد ثار من جهة الميمنة فنظروا اليه واذا بصياح آخر
وغبار قد ظهر من جهة الميسرة ثم بصياح وغبار قد ظهر من خلف
ظهرهم فتحيرت الجراكسة فى انفسهم الى اين يذهبون وسبب ذلك ان قانبردى
الغزالى لما رجع منهزما من السلطان طومانباى الى السلطان سليم واخبره باصدامه
وقتل منهم عشرة فوارس ولكن شربك وطومانباى وقانصوه العادلى
يحجبونى عن مرادى فاخترت الرجوع اليك بشئ اريد ان افعله

ففي ساعته تشيل الجراكسة فقال له السلطان سليم وما هو يا أبا
منصور قال تأمر اياس باشا اغاة اليكجرية يذهب من جهة وأنا
اذهب بمن معي من جهة اخرى وتأمر يونس باشا ان ياتي من جهة
بمن معه من العساكر وانت بمن معك من جهة اخرى وننطبق عليهم
فانهم فئة قليلة ما يثبتون معنا ولا ساعة واحدة فقال السلطان
سليم نعم الراى ثم امرهما اشار به قانبردى الغزالي فما مضى غير ساعة
حتى تفرقوا كما تقدم ثم احاطوا بالجراكسة من كل جهة وجاءت عرب
غزالة من جهة اخرى والسلطان طومانباى والامير شريك والامير
قانصوه والامير يحيي بن ازبك والامير ابرك راس الجلبان والامير دولتباي
والامير ازمك الناشف انظر ما فعل هولاء الفرسان القليلة في هذه
الالوف المؤلفة والجموع التي لا تحصى من الكثرة من كل جنس فصارت
هذه الامراء المذكورون متحدين الركاب في الركاب لا يفارق بعضهم
بعضا وبقية العساكر خلف ظهرهم وهم دائرون في وسط هذه
العساكر لا يدرون اين يذهبون ولا من يقاتلون وما قتل من الجراكسة
احد بالسيف والعود وانما كان القتل فيهم بالبندق واما الامراء
المذكورون لم ينجرح منهم احد وفي هذا اليوم قتل من الجراكسة
اكثر من كل يوم بهذه العملة التي عملها قانبردى الغزالي وغالب
القتل ما كان الا بالبندق والضربزانات والات النيران على سائر
الصنوف وتم النهار ونادى منادى الحرب بالانفصال وافترقوا
على هذا الحال وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ورجعوا وهم لا يعرفون
بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول ذلك اليوم وليس
الخبر كالعيان قال الراوى ونزل السلطان سليم على قرية وردان
ونزل السلطان طومانباى على قرية اسفل منها على شاطئ النيل السعيد
بحيث ان كل عسكر منهم ينظر الاخر راى العين وباتوا تلك الليلة
في اسوء الاحوال من شدة ما حصل لهم من القتال ثم جلسوا بعد ما اكلوا

الطعام الذي جاء لهم من تلك القرية التي باتوا بها واخذوا
في ضرب الراي فقال لهم السلطان طومانباي والله يا اخواني
ما اظن الا ان دولتنا قد زالت فانني اري اننا كلما فعلنا شيئا
نريد ان يكون فيه المصلحة فما يكون امرنا فيه الا بضد ما نريد
واري ان اعداءنا امرهم يزيد فكم قتلنا منهم من الوف ومع ذلك
اري الامر كلما له يزيد وان الغالب على ظني زوال ملكنا وان الظفر
لعدونا وانظروا قول القائل

اذا اقبل السعد قم قائما … واقتبس من الثلج ان شئت نارا
وان رقد السعد فارقد له … فما الثلج في العكس الا اخسارا

ثم ان السلطان طومانباي قال لهم يا قوم ان هذه الواقعة اضرت
بنا وهدمت قوتنا بفقد الامير قانصوه كرت فانه كان ركنا ولا
بقي لنا راي الا ان نذهب الى حسن بن مرعي وابن عمه سقر شيوخ عرب
محارب فاني قد وليتهم عليهم واطلقت حسن بن مرعي من الحبس بعد
ان كان المرحوم السلطان الغوري كتب على قيده مخلد وقد اطلقته
لما ان صار الامر لي واخذت عليه العهود والمواثيق والايمان المغلظة
انه يكون معي ظاهرا وباطنا ويقوم معي بالقلب والقالب اذا احتاج
الامر لذلك وما نري احسن من سيرنا اليه ونكون نحن وهو على قلب
رجل واحد ثم بعد ذلك ندبر امرنا وننظر ما يكون من جانب الله تعالى
وهو يعلم انهم باغون علينا ثم انه امر بالرحيل من وقته وكان
ذلك الوقت نصف الليل فقال له بعضهم فان قام العدو علينا في
هذا الليل فكيف يكون الامر فقال له السلطان هل رأيت وسمعت
ان الروم تقاتل ليلا فهذا الامر لا يكون وانما اعتمادهم هؤلاء القوم على
النار والرماة مشاة لا يقدرون على المشي بالليل فما كانت الا ساعة
حتى ركبوا وساروا من وقتهم وهم مستيقظون لانفسهم حتى
وصلوا الى مدينة سخا وكان حسن بن مرعي وابن عمه شكر قاطنين بها وعربهم

منتشرين

منتشرين بها الى سنهور فنظروا الى خيل السلطان طومانباي وقد
اقبلت فبادروا الى خيلهم فركبت الفرسان وسادات القبيلة وركب
الامير حسن بن مرعي امير العرب والحاكم على تلك البلاد حتى قارب
عسكر السلطان فترجل عن جواده هو واولاد عمه وعشيرته ثم
قدم عليه السلطان وقدم هو على السلطان فقبل يديه وطلب
من السلطان ان ينزل الى منزله للضيافة فقال له السلطان
ما نحن فاضيون للضيافة ولا لغيرها والعدو في اثرنا وقامت
علينا العربان من عرب غزالة لا لقاهم الله خيرا خصوصا سلام بن
حبير لا سلمه الله تعالى وما جئت لك الا لتنظر لنا محلا نحتمي فيه
ثم ندبر امرنا فيما فيه الصلاح لنا فقال له الامير حسن اذا كان الامر
كذلك انا اعرف لكم محلا يقال له الغابة وهو واد كبير واسع
وافر المياه اذا تحصن فيه القوم ووقف على بابه رجل واحد
منع من يدخل ولو كانوا الوفا من الناس فان هذا الوادي لا يمكن
ان يدخله غير فارس ولا يمكن ان يدخل منه اثنان متسايرين لان
لانه ضيق جدا ومن الجانبين ارض رخوة سبخة كل من نزل بقدمه
وداس عليها صاخت به وهذا الوادي هو قلعتنا اذا قصدنا احد
من اعدائنا وعلمنا انه لا قدرة لنا عليه نذهب الى هذا الوادي
فنامن على انفسنا منه فما لكم يا مولانا السلطان اعدل منه ولا
احسن منه فقال له السلطان اركب وسر بنا على بركة الله اليه لعل
الله ان يحفظنا به ونتحصن وما يكون الا ما يريده الله فساروا من
وقتهم حتى وصلوا الى فم الوادي الذي يدخل منه اليه فلما راه السلطان
وقف وغطس قلبه وانقبض خاطره وحس بقلبه انه لا يحصل له
من هذا الوادي خيرا ابدا فحبس فرسه ووقف مكانه وتحير في
امره والتفت الى امراء دولته وقال لهم اني مخبركم بمنام رايته من
مدة يومين رايت نفسي اني في هذا الوادي بعينه وانا على

جانب البحر المالح وقد قامت فرتينة عظيمة واظلمت الدنيا ولا
بقي احد مع احد واذا بخمس كلاب سود قد احاطت بي وارادت
ان تفترسني فجذبت سيفي واردت ان اضربهم به واذا به
قد طار من يدي وسقطت عمامتي ودقت الكلاب علي وقبضوني
فصرت بينهم كقطعة لحم كل واحد ينتشني من ناحية فايست
من نفسي فانتبهت مرعوبا وقد عمني العرق فلما سمع منه الامراء
هذا المنام تشوشت خواطرهم وقال بعضهم ان هذه الرؤيا
لا تدل على خير وان هذا مما يدل ان الظفر لعدونا والنصرة له علينا
فان وقوع العمامة يدل على زوال المنصب واما قيام البحر فانه
قيام هذا السلطان علينا واما عدم السيف فانه يدل على عدم
القوة واما الكلاب فانهم رؤس الاعداء يقبضون عليك ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم فان صحت هذه الرؤيا فقد والله
زالت دولتنا وانقضت مدتنا فقال لهم السلطان ما بقي لنا حيلة
نحتال بها ولا امنعة نستعين بها قد قاتلنا حتى تلفت نفوسنا
وتثلمت سيوفنا وقد قامت الدنيا كلها علينا فما عسى ان نصنع واما
انا فقد اردت ان اسلم نفسي فان كان قد بقي في عمري بقية
فانهم يعطوني الامان وان كان قد فرغ فان كنت على فراشي فاني
اموت واما انتم يا اغوات فقد حاللتكم فليذهب كل واحد منكم
في ناحية الى حيث شاء واراد فلما طال الوقوف قال الامير حسن
ابن مرعي يا مولانا اني اخاف عليكم ربما ان يكون العدو قريبا منكم
فيعسر عليكم الدخول من مضيق فم الوادي فادخلوا بنا على بركة
الله تعالى ثم بعد ذلك اجلسوا واستريحوا ودبروا امركم كيف
تختارون قال الناقل فدخل السلطان طومانباي من باب الوادي
ودخل وراءه الامراء والاجناد فقالت الامراء نحن معك لا نفارقك
حتى تذهب ارواحنا فلا زال بهم حسن بن مرعي حتى اوصلهم

المصدر

الى صدر الوادى فضربوا للسلطان خيمة على تل عال على جانب
البحر المالح ونزلت بقية الامراء فى خيمهم فما هدأت نفوسهم حتى
جاؤا للسلطان لضرب الراى واما حسن بن مرعى فانه اخذ اذنا
من السلطان ليرجع الى بلاده ويأخذ لهم الاخبار ويرسل
لهم يعلمهم بما يقع بالتفصيل فاذن له السلطان فى ذلك ودعى
له ثم قال السلطان لامرائه هذا الوادى خير لنا من قلعتنا التى
كنا بها ما لم يخنا حسن بن مرعى فقالت الامراء كلهم عن لسان واحد
الله يخون للخائن ثم رجع حسن ودخل منزله فسألته امه
عن السلطان طومانباى فقال لها قد ادخلته فى وادى الغابة
وها انا قد رجعت فقالت له امه فما تحب ان تصنع اخبرنى بما فى
ضميرك فقال لها ان هؤلاء القوم دولتهم قد ولت وامورهم
قد حالت ولاسيما وعدوهم قد ملك البلاد وحكم العباد وولى
وعزل من اراد وهؤلاء ما عاد لهم من الامراء الا ظهور خيلهم وقد
تحيرت فى امرى فان قاتلت عنهم فلا قدرة لى على ذلك وان قاتلت
معهم اوقعت نفسى فى المهالك فقالت له امه وكانت من
الصالحات يا ولدى الايمان والعهود التى قد حلفتها انت وابن
عمك له ما تقول فيها فقال لها ولهذا انا متحير فى نفسى كيف اصنع
فهو فى هذا الكلام مع والدته واذا بفرسان القبيلة قد جاؤا
مسرعين وقد علت اصواتهم وهم ينادون اركب يا امير حسن
فاننا ننظر عسكرا جرارا وخيلا ملأت الاقطار فركب حسن بن
مرعى وسار فى اول الخيل حتى اجتمع باوائل العسكر القادمين
واذا بهم عسكر السلطان سليم قد جاؤا فى طلب السلطان طومانباى
والسبب فى ذلك ان السلطان طومانباى لما ركب فى الليل
كما تقدم ولم يتبعه احد وطلع النهار جلس السلطان سليم وحوله
اكابر دولته وجاء الامير خيربك ولم يأت الامير قانبردى الغزالى

فسال عنه السلطان سليم فقيل له انه ركب نصف الليل ومعه
خمسة انفار من مماليكه وتبع السلطان طومانباى فهو الى الآن
لم يأت فخاف عليه السلطان سليم وقال لخيربك انظر الى قلة
عقل صاحبك كيف يخاطر بنفسه فانهم ان فطنوا به لا ينجو منهم
ابدا وانه ان قتل تعطل امرنا وخشى السلطان ان يطول عليه الامر
وحسب حساب الاعادى التى حول مملكته قال فما الرأى عندكم قالوا الرأى
ما يراه الخنكار واطرق رأسه متفكرا فيما يصنع واذا بقانبردى
الغزالى قد اقبل فلما حضر بين يدى السلطان سليم قال له اين كنت
يا قانبردى قال يا مولانا السلطان انى لما رحل طومانباى نصف
الليل احببت ان انظر الى اين يذهب فركبت وتبعتهم على بعد خشية
ان يدركونى فرأيتهم قد سافروا الى ناحية البحيرة او الغربية
فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام قال له فما الرأى عندك قال
الرأى عندى ان تعطينى ما اريد من العسكر ويكون صحبتى الامير
خيربك وارح نفسك فانى ارجوا انى لا ارجع لك الا به او برأسه
فقال له السلطان العسكر بين يديك خذ معك ما شئت منهم
فاختار ان يكون اياس اغا اغاة الينكجرية باربعة الاف معه وخيربك
باربعة الاف خيال فامر السلطان بذلك ففى الوقت برزت هذه العساكر
وأمر على العساكر فرهاد باشا يكون سردار عليهم والامير خيربك
والغزالى يكونان تحت يده ويتقيدون برأيه فساروا فى اثر السلطان
طومانباى وهم يسالون من اهل البلاد حتى نزلوا على قبيلة محارب
وخرج لهم حسن بن مرعى كما تقدم فلما اجتمع بهم قالوا له انا سائرون
فى طلب السلطان طومانباى هل سمعت عنه خبرا الى اين يذهب
فقال لهم الذى يدلكم عليه ويسلمه لكم من غير حرب ولا قتال ماذا
يكون له عندكم فقالوا له ان اردت شارطناك على مهما تريد وان
جعلت الامر لنا ولسلطاننا ولمروءتنا فيكون الذى يحصل لك اكثر مما

تؤمل انت فقال لهم على تسليمه لكم ولجعل الامر بمرونتكم فضمن له
الوزير فرهاد باشا ان يقدمه عند السلطان على جميع مشايخ العرب
وان يقطع ارضيه اقطاعا له الى ان يموت لا يؤخذ منه الدرهم
الواحد ثم ان الوزير فرهاد باشا خلع عليه قفطانا مذهبا من الخلع
السلطانية وخلع ايضا على ابن عمه شكر ووعدهما بكل خير ثم خرج
حسن بن مرعى وابن عمه وهما فرحانان حتى دخل على والدته فقالت له
ماهذه الخلعة ومن اين جاءتك فاخبرها بما وقع له وانه التزم
لهم ان يسلمهم السلطان طومانباى فقالت له انسيت ما فعله معك
السلطان طومانباى قد اطلقك من الحبس وامنك بعد الخوف
وحلفت له الايمان بانك ما تخونه فكان جزاؤه منك ان تسلمه
لعدوه وتظن انك اذا فعلت ذلك تلقى خيرا بعده والله لئن فعلت
ذلك لاغضبن عليك غضبة تكون سببا لهلاكك فقال لها فما
الذى افعله وقد رهنت لسانى معهم بانى اسلمه لهم واذا لم افعل
ذلك ما سلمت من شرهم وربما يبطشون بى فلا ينفعنى لا انت
ولا هو فقالت له ان الراى الصواب ان ترسل فارسا للسلطان
طومانباى وتخبره بما وقع وانه يكون على اهبة ان شاء حاربهم وان
شاء هرب الى جهة اخرى واما انت فارجع اليهم وشاغلهم الى ان
يطيب الطعام فبينما هم ياكلون يكون طومانباى قد عدى بلادا
بعيدة او يكون قد تهيا للحرب فتخلص انت من الجهتين فوافقها على
ذلك وخرج من عندها وهو متردد كيف يصنع ويقول لنفسه
اين عقلك تقتدى بكلام النساء الناقصات العقل والدين
وتترك ما يحصل لك من السلطان سليم من العز والجاه والتخريب
العربان بسبب من غدرت به الايام والليالى وفاتت دولته
وانقضت مدته واذا لم امسكه انا مسكه غيرى وفاز بالفخر
والعز فليس هذا من الصواب فى شئ ثم انه اجتمع بابن عمه شكر واخبره

بما قالت له امه فقال له منكر وهل عاقل يبيع عاجله بآجله وتميل
الى الكفة الناقصه فيحصل لك الخسران فاتفقوا على ان يكونوا مع
السلطان سليم واما السلطان طومانباى فقال لاخوانه انى اريد
ان اخبركم بما رأيت فى هذه الليلة رأيت ان قائلا يقول لى رأيت
رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربك السلام ويقول لك ان
دولتكم قد زالت وعمركم قد فرغ وانت جارنا فى الجنة بعد اربعة
ايام ارجع عن القتال فلا فائدة لك فيه وانا قد عزمت على رمى
سيفى فى هذا البحر المالح وقال لهم كل واحد منكم يذهب الى حيث
اراد وهذا اخر اجتماعنا فى الدنيا والقيمة تجمعنا فى الاخرة قال
الناقل فبينماهم فى هذا الكلام الا وقد رأوا الخيل قد اقبلت عليهم
من بعيد فقامت الامراء كلهم على ساق وركب الامير شربك وبقية
الامراء واتباعهم وحطموا على عدوهم بقلوب كالحديد لكن العدو
كثير وهم طائفة قليلة لكنهم فرسان عارفون بركوب الخيل واولئك
كثير غير عارفين بذلك لكن اعتمادهم الاقوى على الرماية بالبندق
والضربزانات فلما رأهم الغزالى حطموا عليهم قال للعسكر فسحوا
لهم طريقا حيث ان طومانباى ليس هو معهم فصار من عسكر
الروم الذى يقرب على الجراكسة يقطعونه بالسيوف الى ان وصلوا
الى آخر الجراكسة وهرب بعضهم من مضيق الغابة الى الخارج واما
قانصوه العادلى فانه ذهب الى اصحابه من عرب قطاره وكان
معهم نحو الفى فارس راكبة مع القبائل التى جاءت لنصرة السلطان
طومانباى فلما رأوا ترك الحرب وفعل بنفسه هذه الفعال تركوه
واخذ واصهرهم ورجعوا وصحبتهم سيدى يحيى بن الامير ازبك
طلعوا من مضيق الغابة قبل وصول العسكر مع الذين هربوا واما
شربك الاعور فانه خرج قبل وصول العسكر وتبعه اثنان
من مماليكه وكان بينه وبين الامير احمد بن بقر شيخ العرب صحبه ٠

اكيدة

كيدة بحيث ان الامير احمد هذا اذا كانت له مصلحة في مصر ما كان
ينزل الا عند الامير شربك فيقوم به الامير شربك احسن قيام ويكرمه
غاية الاكرام وليس الخبر كالعيان وكان يقضي له جميع مصالحه من
جانب السلطنة ويقوم بناصره على اعدائه حتى ان الناس كانت
تقول لولا الامير شربك على الامير احمد بن بقر ما كان له حال
وكانوا يتعجبوا من محبته له واكرامه وقيامه بشانه ويحسدوا
على ذلك غاية الحسد حتى ان الامير شربك كان يقول له يا امير
احمد طول ما راسي تعيش لا تحمل هما ابدا ولا تحسب حساب احد ولا
السلطان الكبير فان الامير شربك كان يحسب حساب اقرانه لئلا يسعوا
في هلاكه فانه كان فريد عصره في الفروسية وركوب الخيل وكان
اذا ركب ونزل في الميدان عند لعب الجريد مع الامراء تحير النظار
ولم يقدر احد يقبل عليه وكان من شدة محبته اذا حصل له
مضايقة من السلطان او من احد من الامراء الاعيان يذهب الى
صديقه الامير احمد بن بقر ويدبر امره ولما كان من امر السلطان
طومان باي ما كان من تركه القتال وتسليم نفسه للعدو وخرج
الامير شربك من الغابة قال في نفسه ما لي اوفق من ان اسير الى
صاحبي الامير احمد بن بقر وانزل عنده حتى ادبر نفسي فيما افعل اما
اني اسافر الى بلاد العجم واكون مع سلطانهم او اسافر الى بلاد
اليمن ولله التدبير فيما يريد والشاعر يقول

تحذر من صديقك كل يوم ... وبالاسرار لا تركن اليه
سلمت من العدو فما دهاني ... سوى من كان معتمدا عليه

فما زال سائرا من بلد الى بلد والدنيا قائمة على ساق والعربان هاجت
والدنيا ملبجت وصار كل مفعول جائزا وكل من كان له عدو
قصده فان ظفر به قتله والناس مرتابون في بعضهم في اشد ما
يكون حتى وصل الى النيل السعيد وعدى منه الى الشرقية ثم سار

الى ان وصل الى الامير احمد بن بقر اخر النهار وحده فى منية غمر فرحب
به وانزله فى بيته واكرمه غاية الاكرام ثم حكى للامير احمد بما
وقع لهم مع عدوهم من الاول الى الاخر فكلهم تعجبوا من السلطان
طومانباى لانه اخطأ فى هذه الفعلة التى فعلها وتسليم نفسه علا
يتحكمون فيه كيف شاؤا وكيف يرى الهوان بعد العز وكان يقاتل
الى ان يقتل ولا يسلم نفسه فانهم لا يبقون عليه ابدا وتبقى
الاهانة والذل وشماتة الاعداء اقبح واتعس فقال الامير
شربك قد تم الامر وذهبت دولتنا وما بقى كلام الا التدبير فى
المسير من هذه البلاد وقصد ان يرسل يأتى بحريمه وولده ويخرج
ليقصد بلاد اغير هذه البلاد فقال له الامير احمد بن بقر يا امير
قالت العارفون من تأنى نال ما يتمنى اصبر حتى ننظر ما يتم الامر
عليه فقال له الامير شربك اين عقلك حيث ان السلطان طومانباى
سلم نفسه لعدوه هل بقى لك بعد ذلك شئ فى غد تأتيك الاخبار
بانه صلب على باب زويله او علقت راسه عليها هذا ما جرى للامير
شربك واما السلطان طومانباى فانه بقى وحيدا فريدا وقد رمى
بجميع عدته وسلاحه وملبوسه فى البحر المالح حتى المصحف الفولاد
الذى ليس له نظير فى الدنيا والقنطارية المفردة حتى الطبر الجناح
الذى لم يسمح الزمان بمثله فانه كان صاعقة من الصواعق لا يضرب
به على حديد الا قطعه ولا على حجر الا فلقه فكان من تحف الملوك
القدماء فعند ذلك حطمت عليه العساكر يقدمهم اياس اغا اغاة
الينكجرية وخيربك والغزالى وحسن بن مرعى فاقتضى رأيهم انهم
يقبضوا عليه حيا ويأتون به للسلطان سليم يفعل به ما يحب
ويختار ثم امروا جميع العسكر ان يغمدوا اسيوفهم فانه قد رمى
سلاحه ولا بقى معه احد يقاتل عنه ففعل الجراكسة كما امروا
وعسكر السلطان سليم كذلك ثم حلقوا عليه من كل جانب وصار

بينهم

بينهم كالسبع فعند ذلك نزل اياس والغزالى وخيربك وجاوا
اليه فقال له اياس اغا الامر امر الله تعالى فقم لمولانا السلطان
اجعل يدك اليمنى فوق اليسرى ولا تواخذنا في ذلك يا مولانا
ففعل وربطوهما من قدام واوثقوهما فان الاعيان لا يكتفون
الا من قدام ثم قدموا له بغلة واركبوه عليها وقيدوه من تحت
بطنها واحاطت به اليكنجرية وبقية العسكر ووجدوا في التسير
كانهم وقعوا بفريسة عظيمة اولقية ولو امكنهم ان يطيروا
به لطاروا فأخذ يتكلم مع اليكنجرية فسألهم عن حالهم وعن قدر
جوامكهم فقالوا الكل واحد منا ستة عثامنة الى عشرة عثامنة
فقال لهم انتم جئتم من بلادكم الى هنا لاجل ذلك فقالوا نعم
فقال لهم بارك الله فيكم وبهذا قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له
على هذا القدر اليسير والله ان جامكية احدكم لا تكفى ان تكون
جامكية سايس من سياسنا فوالله ثم والله لو تكونون عسكري
لجعلت لكل واحد منكم دينارا في كل يوم فقال بعضهم لبعض ما الرأي
نطلق هذا الرجل ونكون اعوانا له ونأخذ دينارا في كل يوم
ونصير عنده في اعز ما يكون فمنهم من استصوب ذلك الكلام ومال
اليه ومنهم من قال لا يغرنكم هذا الكلام فانه ما قال لكم ذلك
الا لما رأى نفسه وقع في ايديكم وهل يكون هذا قط انه يصير
لكل واحد منا دينار في كل يوم فوقع فيهم الرج وما زالوا سائرين
به حتى وصلوا الى اوطاق السلطان سليم وقد كانوا ارسلوا
اولا وقت قبضهم عليه يبشر السلطان بانهم مسكوه مسكا
باليد واعلموه كيف كان قبضهم عليه وان شيخ العرب حسن بن مرعي
هو الذى كان سببا في ذلك لانه ما دلهم على موضعه الا حسن
هذا وانه حسن له عبارة في دخوله في هذا الوادى وحبسه فيه
وانه يستحق كل خير فانه لولا حسن هذا ما عرفنا له موضعا وذكروا

للسلطان جميع ما وقع وانهم قادمون به بالقيد والبند بعد ان
كان قد رمى سلاحه فى البحر المالح وسلم نفسه بالامان وقد
تشتتت جميع عساكره ومسكناه باليد وهو واقف على جبل
عال بمفرده ففرح السلطان بذلك غاية الفرح وقال الآن ملكنا
ملك مصر فما تم الكلام الا وقد اقبلت العساكر ولهم ضجيج عظيم
فقام اوطاق السلطان على ساق حتى ان السلطان ارتاب من
ذلك وظن ان العدو قد هجم على اوطاقه فقالوا له البشارة
هذا اياس اغا وخيربك والغزالى قد جاؤا بغريمك فلما وصلوا
الى خيمة السلطان سليم خرج لهم الوزير الاعظم يونس باشا
وامرهم ان ينزلوا السلطان طومانباى واخبروه بالواقعة من
اولها الى اخرها وانه لولا الشيخ حسن بن مرعى هذا والا ما كنا
عرفنا له طريقا فشكره السلطان على ذلك ووعده بكل خير
فلما اصبح الله تعالى بالصباح امر السلطان ان يعمل الديوان
واظهر ما عنده من الزينة الملوكية ورتبوا له احسن ترتيب
وحضر جميع العساكر ووقفوا بين يديه على حسب مراتبهم واوكبوا
موكبا عظيما ووقف الينكجرية صفوفا على احسن ترتيب وكذلك
المدافع فى ناحية العسكر صفوفا وجهزوا النار وهم منتظرون
امر السلطان ان يطلقوا عليهم وعلى البنادق نارا وتندق الكاسات
والطبلخانات التى للسلطان والتى للوزراء والباشات والامراء
ثم امر باحضار السلطان طومانباى والامير حسن بن مرعى فلما
حضر السلطان طومانباى دخلوه من بين هذه العساكر ورأى
نظام العثمانية فى احسن ما يكون ونظر هذه العساكر وهذا
الترتيب الذى لا عين رأت ولا اذن سمعت ولما دخلوا به على
السلطان سليم خان سلم عليه بسلام الملوك فرد عليه السلطان
سليم كما يجب ولم ينقص مقامه فى سلامه ثم وقف طومانباى

فامر

فأمره بالجلوس فجلس وهو فى غاية الندم على ما فعل وقال انى كنت
طيرا طائرا وكانت الارض واسعة اذهب الى حيثما اريد واختار
فسلمت روحى لعدوى بيدى بئسما كانت فعلة فعلتها اوجبت
لى الهم والذلة كل ذلك خطر فى نفسه وهو جالس لا يتكلم
ولا احد يتكلم ولا يرفع صوته ولا رأسه فنظره السلطان سليم
وتأمله بعين الفراسة فوجد فيه كل شئ يشهد له بالشجاعة
والفروسية وكمال العقل شاهد له لا عليه فتعجب السلطان سليم
فيه كيف سلم نفسه بغير حرب ولا قتال ولم يكن له شئ فيه
يشهد بانه جبان ابدا بل انه اذا رآه من لا يعرفه يشهد له بانه شجاع
بطل ثم ان السلطان سليما قال فى نفسه انما هذا امر سماوى
اصابه وطالع نحس غرهب عنه صوابه حتى رمى سلاحه وسلم
نفسه مع انه قاتل قتال الجبابرة ولا لو هرب كانت الدنيا واسعة
بين يديه ايما شاء ذهب وحيث طلب هرب ثم التفت اليه وقال
له يا طومانباى كم نهيناك عن القتال وعن سفك دماء المسلمين
اولا انى ارسلت لك من الشام ان تجعل السكة والخطبة باسمى
وانت مقيم على ملك مصر وانا ظهرك ومعين لك على سائر ملوك
الارض فأبيت ذلك وقتلت رسلى والرسول لا يقتل فسرنا
بعساكرنا لقتالك ورفعنا الاعلام ونشرنا العساكر على خراب
ديارك فاول مقابلتك فى الريدانية هزمناك الى الصعيد وارسلت
اليك رسلا الى الصعيد ومعهم قضاة بلادكم فلم تقبل الصلح
وقتلت القضاة وتعديت شيم الكرام بقتل الرسل اولا وثانيا
ثم عاتبه عتابا كثيرا فقال له طومانباى والله انه لم يكن
شئ مما جرى بخاطرى ولا بأمرى ابدا ولا برأيى وانى لما ارسلت
الى من الشام الرسل اكرمتهم وامرت بنزولهم فى دار الضيافة
وفى نيتى ان افعل ما جاؤا به وارد الجواب كما امرتنى فلاقاهم الامير

علان وهم سائرون الى بيت الضيافة فقتلهم فلما بلغني عسر علي
ذلك وكذلك الرسل الذين ارسلتهم جرى في حقهم ما جرى
في حق غيرهم من غير رضاي وكل هذا ليس بأمري ولا بارادتي
وانما جرت بهم المقادير من الرب القدير وحتى تجرى الامور على
ذلك على ما كانت من قديم الزمان بان دولتنا زالت وادبرت
ودولتكم جاءت واقبلت وهذا شئ كتبه الله تعالى في القدم
واجرى به القلم ودارت به الافلاك وسارت به الكواكب وما اراده
الله فلا مرد له ولا يغلب لله غالب تبارك وتعالى رب الافلاك
والكواكب ولولا ذلك ما قدرت انت ولا غيرك على اخذ بلادنا
فانه لو كان بالقوة والشجاعة ما كنتم اقوى منا ولا اشجع وها
انتم رأيتم كيف فعلنا مع عسكركم وكسرتهم كذا كذا مرة واما قولكم
انكم كنتم تريدون ان تكون السكة والخطبة باسمكم وان تكونوا
رؤس الملوك بخدمة الحرمين الشريفين فانا والله ما اخذت
السلطنة برغبة مني وانما قومي وعسكري اختاروني ورغبوا
في ان اكون انا السلطان عليهم لما علموا من زهدي في ذلك المال
فلما تقلدت ذلك وجب علي ان اردعنهم وادافع عن اموالهم
وانفسهم واولادهم وحريمهم واما انت فانما قيامك في حفظ
نفسك لا غير خصوصا ونحن مسلمون فكيف تستحل قتل المسلمين
وترمي عليهم بهذه المدافع والنيران كيف بك اذا وقفت بين يدي
رب العالمين فما جوابك وكل ملك وان تعاظم ملكه فهو لله عبد
اصغر فما انت وانا الا بجملة العبيد فتعجب السلطان سليم ثم قال
له انا ما جئت عليكم الا بفتوى علماء الاعصار والامصار وانا
كنت متوجها الى جهاد الرافضة والفجار فلما بغى اميركم الغوري
وجاء بالعساكر الى حلب واتفق مع الرافضة واختار انه يمشي
الى مملكتي التي هي مورث اباي واجدادي فلما تحققت ذلك تركت

الرافضة ومشيت اليه ونظر سلطانكم وعسكركم قوتنا وقوتكم
وبعد حضوري الى الشام سمعت انك عملت سلطانا على الكبشة
الاجلاف وانت لست اهلا لها والسلطنة لاتكون ولا تليق الا
برجل يكون اباؤه واجداده سلاطين وانت وقايتباي الذي
هو اعظمكم والغوري ما اسما ابائكم ومن اين لكم السلطنة
ومن اين لكم الامارة كلكم اولاد نصاري وانتم مماليك بالاعتاق
حتى بقيتم من قلة عقلكم وقلة ادبكم تعملون الرجل منكم سلطانا
تعزلونه وتقتلونه اي يدلكم حتى تعزلوا وتولوا وتقتلوا
وتطولوا اياديكم على السلاطين فانت وقومك كم قتلت من عسكري
كل مسلم وابن مسلم فما جوابك عنه عند الله تعالى فقال له سر عا
ان الله تعالى قد اجاز لي ذلك قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز
وهو اصدق القائلين فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم اللهم ان المرحوم الملك الاشرفي قانصوه الغوري وقع بينك
وبينه التنافس ودخلت الشياطين بينكم وبرهنت الاعادي بينك
وبينه وختم الله تعالى له بالشهادة وستقف انت وهو بين
يدي رب العالمين واحكم الحاكمين واما انا فليس بيني وبينك عداوة
ولا احد من عسكرك ولا غيرهم فقال له السلطان سليم والله ما كان
قصدي اذيتك ونويت الرجوع من حلب ولو اطعتني من الاول
وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك ولا دستار مهلك
فقال له طومانباي الانفس التي تربت في العز لا تقبل الذل ولو ارسلت
لك انا وامرتك ان تكون تحت امري هل كنت ترضى بذلك وهل سمعت
ان الاسد يخضع للذئب لا انتم افرس منا ولا اشجع منا وليس في
عسكرك من يقايسني في حومة الميدان ونحن قوم قد خصنا الله
سبحانه وتعالى بذلك ولكن انا اعرف ان ما عليك اضر من هذين
الشيطانين الخائنين فانه لو كان فيهما خير لكانا لنا فقال السلطان سليم

للحاضرين والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن اخروه في الترسيم
حتى ننظر في امره فأخذه اياس اغا وذهب الى خيمته واجلسه
بها واخذ السلطان سليم يتكلم مع الحاضرين في شأنه واذا
بالبشارة قد جاءت من عند الامير احمد بن بقر بأنه قبض على
شربك الاعور وانكم ترسلون من يأخذه فازداد فرح السلطان
سليم بذلك وقال من يذهب اليه ويأتي به فقال الغزالي على
ذلك فقال له انت لها يا ابا منصور فقام الغزالي من وقته
وخرج واخذ معه مائتين من نقاوة العسكر فما تم النهار الا وهم
في منية غمر فوجدوا الامير احمد بن بقر واقفا لهم في الانتظار
فلما اجتمع به قانبردي الغزالي وسلم عليه قال له احمد بن بقر
انزل الى الضيافة قال لا يمكن ذلك فان السلطان سليما نصره الله
تعالى امرني ان ارجع اليه في يومي هذا فاسرع لنا بشربك وسر
معنا الى السلطان ليكافئك على فعالك ولا تخبرني كيف مسكته
الا ونحن سائرون فعند ذلك احضروه وهو مقيد مزند ووقع
بصره على احمد بن بقر وقانبردي الغزالي فقال لهم الله يخون الخائن
فلم يرد له جوابا وركبوه على بغل وقيدوه من تحت بطنه وطاروا
به كما يطير الغراب اذا اخذ البيضة ثم اخذ احمد بن بقر يحكي لقانبردي
كيف قبض عليه فان الامير شربك لما خرج من الغابة بعد ان ايس
من السلطان طومانباي وقصد صديقه وحبيبه الامير احمد
ابن بقر فلما وصل اليه اكرمه وزاد في اكرامه وقال له لا تخف
ولا تحزن حيثما وصلت الي فحكى له الامير شربك على ما حصل
من السلطان طومانباي وكيف سلم نفسه لعدوه ورمى سلاحه
في البحر المالح وان ذلك كان سببا لانقضاء الدولة ثم دخل الليل فنام
الامير شربك ليأخذ لنفسه الراحة وكان له عدة ايام وليالي لم
ينم ولا طرق النوم عينه فنام واطمأن على نفسه فقال احمد بن بقر

الاصحابه خطر عندى شئ اذكره لكم قالوا وماهو قال ان هولاء
القوم قد زالت دولتهم حيث ان سلطانهم قد سلم نفسه وانى
اريد ان افعل كما فعل حسن بن مرعى واجعل لى يدا عند السلطان
سليم واخذ السكرانية على غيرى فقالوا له هذا هو الصواب
قال فقمت من ساعتى ودخلت عليه وهو نائم ومعى نحو عشرة
او عشرين نفسا فضربته بالنبوت فى راسه بعد ان نبهته بسرعة
فلما رفع راسه وهو مدهش من ضربته التى فى راسه وقد بطحته
امرت بقية الحاضرين فوقعوا عليه وكتفوه وقيدوه وزندته
وارسلت لكم على الفور اعلمكم بذلك فشكره على ذلك قانبردى
الغزالى وقال له الآن قد اشتفى قلبى من هذا الاعور الخبيث ولا زالوا
مجدين السير به حتى اوقفوه بين يدى السلطان سليم فتامله ونظره
فوجده من اكمل الرجال وهيبته ظاهرة عليه وشجاعته لابسته
ذو استكانة وهيبة ووقار وضخامة وحشمة فاراد السلطان سليم
ان يختبر كلامه حتى ينظر عقله فقال له السلطان كيف تنظر الدنيا
يا شريك فقال كلاشئ فقال له حيث كانت كلاشئ فكيف تقاتل
عليها وتحارب فيها قال انما قاتلت عليها ولا نافست احدا فيها وانما قاتلت
عن مالى وعيالى وعرضى واولادى وكتاب الله تعالى وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم اجاز الى ذلك فاما الكتاب فقد قال الله
تعالى فى كتابه العزيز فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى
عليكم وقال تعالى اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله
على نصرهم لقدير وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل
دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون عياله فهو شهيد فنحن ما قاتلكم
الا باذن من الله ورسوله وانت باى دليل استحللت دماءنا
واموالنا فقال السلطان سليم اولا قد استفتيت عليكم والجازنى
العلماء بذلك فانه قد بلغنى انكم تقتلون ملوككم وتاخذون الامر بالسيف

ولا تقفون على الحدود الشرعية فقال شرباك اما قتل المملوك فانه
كلام باطل فقد اقام المرحوم الملك السلطان الاشرف قايتباى
نحو ثلاثين سنة وهو ملك مصر الى ان مات رحمه الله تعالى
واما ابنه محمد فقد تعدى الحدود ولم يقف على حدود الشرع
ولهذا قتلناه واما الذين تولوا بعده فاننا لم نر فيهم قابلية للملك
فلهذا اقمناهم فمنهم من حبسناه ومنهم من قتلناه اتقاء لشره وقد
اخترنا المرحوم الامير قانصوه الغورى وجعلناه سلطانا فاقام
الى ان خرج اليك لامر اراده الله تعالى فى الازل الى ان حصل ما حصل
وآخر الحياة الموت وما نحن باقون من الموت فقد قال الله تعالى
انك ميت وانهم ميتون ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون
فلما سمع السلطان سليم ذلك الكلام من شرباك اشار بيده ان
اخرجوه فاخرجوه فى الترسيم واقعدوه قال الراوى فى اليوم
الذى جاؤا بالسلطان طومانباى بعد سؤاله وجوابه اليه قبل
ما يعطيه الترسيم اشار اليه بيده ان اطلقوا المدافع والضربزانات
والبنادق ودقت النوبة السلطانية ودقت الكاسات والنقاريات
واطلقوا المدافع والضربزانات والبنادق وكبروا التكبيرات ثلاثة
ايام حتى تزلزلت الارض وضربوا النوبة من الوزير الاعظم وسائر
الوزراء والباشات والامراء وبعد اخرها اشار على ترسيم السلطان
طومانباى ثم امر ان ينادى فى جميع مصر بالزينة فزينت الناس
جميع مصر والقاهرة وجميع البيوت والدكاكين وامعن الناس
فى ذلك واشيع فى سائر اقليم مصر بان السلطان طومانباى
مسكوه بدلالة حسن بن مرعى وصار الناس منهم من يصدق
ومنهم من الاطراف والفلاحين من يكذب ولما كان فى ليلة
الاحدى والعشرين من شهر ربيع الاول وكان السلطان طومانباى
قد صلى العشاء وجلس وهو كثير التفكر زائد التضجر وزائد الحسرات

متتابع

متتابع العبرات اخذته سنة من النوم وهو جالس فاذا شخص
واقف قدامه وقال له يا طومانباى قدم نفسك للرحيل فقد
مضى الكثير والقليل وجاء الوقت المعلوم فانتبه من نومك فقد
حصل فراقك من اهلك وقومك فانتبه مرعوبا فزعا وتعوذ
بالله من الشيطان وقرأ ما تيسر من القرآن فنزل عليه من النوم
شئ ثقيل فاضطجع كانه ميت او قتيل قال ولم ينزل عليه من النوم
طول عمره اثقل من تلك الساعة والسبب فى ذلك ان الروح تعلم
بفراقها للبدن فتودعه بطيب الوسن ثم افاق بعد ذلك فوجد
نفسه كانه صبت عليه ماء من كثرة العرق وكما هو كذا اخبر بذلك
عن نفسه للقاضى اصيل الطويل فانه لم ياته احد من اهل مصر غيره
واوصاه ان يغسله ويكفنه بيده وقد فعل ذلك كما اوصاه
قال الناقل وما زال السلطان طومانباى على سهرته الى الصباح
فلما تباينت الوجوه واذا بالجاووشية قد جاؤا اليه والفليجية
وهم مسرعون وقالوا له قم فان السلطان يطلبك فقام معهم
وساروا به الى ان قرب من خيمة السلطان سليم اوقفوه واذا بيقا
اغاسى قد خرج من عند السلطان وقال قد برز امر السلطان بان
تسيروا به الى باب زويلة وتصلبوه هناك وجاؤا له بالبغلة
واركبوه عليها وقيدوه من تحت البغلة ودارت حوله الينكجرية
والعساكر من سائر الطوائف وخرجوا به من وطاق السلطان
الى انبابه ونزلوه فى مركب وعدوا به الى بولاق ودخلوا به من
مرجوش الى بين القصرين وقد انقلبت الدنيا بالضجيج والبكاء
والصياح وكان الواحد من عسكر الروم يجئ الى الرجل من اهل
مصر ويقول له هذا الذى على البغلة هو السلطان طومانباى
ام غيره فيقول المصرى بل هو هو وكان ذلك اليوم على اهل المملكة
أشئم الايام وبكت عليه الارامل والايتام

ذكر صلب السلطان طومانباى على باب زويلة

قال الراوى فلما وصلوا به الى باب زويلة وجدوا الحبل مرخيا
فاسرعوا به ونزلوه عن البغلة وصلبوه من غير مهلة ثم بعد ذلك
انزلوه وساروا به فى نعش الى قبة السلطان الغورى فغسله
القاضى اصيل الطويل وكفنه من ثياب ارسلها له السلطان سليم
من خاص الموصلى الرفيع ثم صلى عليه القاضى ايضا كما اوصاه
ودفنوه فى فسقية القبة المذكورة وارسل السلطان سليم
ثلاثة اكياس من الفضة تصدقوا بها عليه قال الراوى وانه حضر
الصلاة على السلطان طومانباى ثم ان الذى فرق الاكياس على الناس
فرقها من غير عدد بالتصيب اعطاه ثلاث حفنات فضة واعطى
القاضى اصيلا مثل ذلك وفرق الباقى على الناس من غير عدد بالتصيب
قال ثم ان السلطان سليما فى الساعة التى امر فيها بصلب السلطان
طومانباى احضر الامير شربك الاعور وامر بضرب عنقه فقطعوا
راسه وجاءت عياله وغلامه للحاج فارس فاستاذنوا فى اخذه
فاذن لهم فاخذوه وجاؤا به الى المدرسة البيبرسية وغسلوه
وصلوا عليه ودفنوه فى مسجد من داخل الخوخة التى عند الفرن
بالقرب من داخل المدرسة المذكورة وكان هذا اخر مدة الجراكسة
وهو يوم الاحد الحادى والعشرين من شهر ربيع الاول سنة اثنين
وعشرين وتسعمائة قال المؤلف الذى وصل الى علمى من لفظ
سيدى محمد بن السلطان الغورى ان السلطان سليما لم يكن فى نيته
قتل السلطان طومانباى وانما كان التسبب فى ذلك خيربك نائب
حلب وقانبردى الغزالى فانهما لما رايا السلطان سليما لم يسهل عليه
قتله وصرح لهم فى المجلس العام بان مثل هذا لا يقتل لانه لما راى كلامه
مسددا وهو حق وصدق وثبت عنده صدقه وظهر له حاله
وراى من شجاعته ما يفوق الوصف لم يسهل عليه قتله وكان اراد ان

يأخذه معه الى بلاد الروم ويبقيه عنده ذخيرة بعد ان يستحلفه
الايمان المعظمة وثبت عنده دينه وصلاحه وكان رحمة الله
عليه محبوبا لكل من يراه فلا يراه غريب ولا قريب الا احبه وشهد
له بالصلاح فخشي خير بك على نفسه وكذلك قانبردي ان السلطان
سليما ان اخذه معه وصار بينهما اتحاد لا يبقي عليهما فأخذوا
يدبرون الحيلة ويحسنون للسلطان سليم قتله وانه متى ابقى
عليه لا يقوم له نظام ابدا وربما يفسد عليه عسكره فانه رجل
شجاع وكريم للغاية الدنيا عنده لا قيمة لها ابدا وخصوصا للاجناد
والعساكر فعند ذلك اقتضى رأي خير بك والغزالي بأن يكتبوا
للسلطان ورقة ويرسلوها من غير ان يشعر بها احد من الوزراء
ولا من غيرهم ومن جملة ما كتبوا فيها فليعلم مولانا السلطان
ان اهل مصر الذين تشتتوا من الجراكسة لم يصدقوا ان سلطانهم
عجز وسلم نفسه وقبض عليه وكذلك اهل الاقاليم والعربان
وايضا ليعلم مولانا الخنكار انك متى ابقيت عليه فقد ضيعت
تعبك وسفرك وهلاك عسكرك واموالك فانه بمجرد ما تسافر
من هذه البلاد لو كان تحت الارض خرج منها وافسد عسكرك
بالعطاء وتندم حيث لا ينفع الندم فان اردت ان تطيعك الممالك
والبلاد وتحتوي على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ولا
مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه وارسل اصلبه على باب زويلة
ليراه الخاص والعام ويشاع ذلك في سائر البلاد وتيأس
الناس من بقائه وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هذا
الاقليم العظيم الذي ليس له نظير تحت سماء الدنيا ولقد قال
بعض الحكماء عدوك لا تصافيه وصديقك لا تجافيه وقال آخر
من لم يحسب العواقب ما الدهر له بصاحب فعند ذلك امر السلطان
سليم بصلب طومان باي ورمي عنق شربك كما تقدم *

ذكر صفة السلطان طومانباى رحمه الله تعالى

كان رحمة الله عليه على ما حكاه عنه سيدى محمد بن المرحوم الغورى والقاضى اصيل الطويل والامير دزدمك الناشف وغيرهم ممن رآه وعاشره وعرفه ظاهرا وباطنا فاتفق الجميع على انه كان مقداما خبيرا بالحرب ومواقع الطعن والضرب والدخول فى الميدان والخروج منه لا يرهب الاقبال ولا يخطر الموت له على بال وقد ذكرنا ذلك فى حروبه ووقائعه وكان متوسط الطول ذهبى اللون واسع الجبين اسود العين والحاجبين واللحية وكان دينا صالحا خيرا فاضلا زائد الادب والسكون والخشوع والخضوع ملازما لزيارة المشايخ الاحياء منهم والاموات حتى انه لما غسله الغاسل وقلع ما عليه من الثياب وجدوا على بدنه جبة صوف حمراء واوصى ان يدفنوه بها ولم يظهر عنه فى حياته شئ من الافعال الرديئة ابدا لا شرب خمر ولا زنا ولا فواحش ابدا وكان قليل الشهوة لا يظهر شيئا مما يفعله اهل التجبر والعنف وكان الغالب على حاله السكينة والوقار وكان غالبا على نفسه رزينا فى احواله لين الكلمة ذا انخفاض كثير الرحمة والشفقة على كل احد حتى انه لما ظهرت منه هذه الفراسة والشجاعة فى قتال السلطان سليم صارت الناس يتعجبون منه غاية العجب ولا كان احد يظن انه بهذه الصفة وكان الذى عمره ما رآه اذا رآه لا يشك فى انه عبد صالح فان الصلاح والانس والخيرية كانت ظاهرة عليه وعلى وجهه وقد تقدم فى التاريخ ان السلطان سليما ما هان عليه قتله لما رآه وسمع كلامه وقال له والله يا طومانباى لو كنت اطعتنى على مرادى بان تجعل السكة والخطبة باسمى ما دخلت لك ارضا ولا بلادا ولا وقع بينى وبينك حرب ابدا ولكن لكل شئ سبب حتى جرى القضاء والقدر وقتل من قتل وسلم من سلم وكانت زوجته خوند

بنت قانبردى الغزالى ديويدار كبير وتزوجت بعده برجل يقال
له ابن الشيخ ابراهيم الكلشنى وبقيت بمصر الى ان ماتت ولم
يخلف السلطان طومانباى اولاد الا ذكورا ولا اناثا واكثرت
فيه الشعراء من المراثى والقصائد ومضى كأنه لم يكن وكان القاضى
اصيل الطويل دائما يحكى عنه حكايات غريبه وامورا عجيبه
تشهد له بأنه من عباد الله الصالحين ومات القاضى اصيل فى
سنة سبعين وتسعمائة قال الراوى قد قدمنا فى هذا التاريخ
ان السلطان طومانباى تولى فى يوم الاحد الخامس عشر من شهر رمضان
سنة تسعمائة واحدى وعشرين وانقطع اسمه من الخطبة على
منابر مصر فى اول سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وكان من
حين ضربت له السكة واقيمت له الخطبة ثلاثة اشهر وخمسة
ايام قال المورخ وفى الساعة التى امر السلطان سليم فيها بصلب
طومانباى وقتل الامير شهبك حضر فيها شيخ العرب حسن بن
مرعى وابن عمه شكرا وشيخ العرب احمد بن بقر وخلع عليهم خلعا
عظاما من اجل خلع الملوك واعطى لكل واحد منهم ولاية بلاده
اقطاعا له لا يحمل من مالها لديوان السلطان شيئا ولاده بعدهما واحد
ماداموا فى قيد الحياة وارسلهم الى بلادهم بعد ان احسن اليهم
احسانا جزيلا واكرمهم اكراما عظيما

ذكر تولية الكشاف ومشايخ العربان

قال الراوى ثم امر السلطان بتولية الكشاف فولى الامير جانم على
البهنسا والفيوم وجانم هذا هو الذى تحارب مع السلطان
طومانباى وولاهم على ما كانوا عليه فى مناصبهم وامران يكتب
فى الدواوين ولجميع الحكام بعدم المعارضة لجميع اصحاب
الاقطاعات والارزاق والاوقاف والجوامع واولاد الامراء والامراء
الجراكسة الذين تخلفوا وكل من بيده شئ من الارزاق هو باق عليه

وجعل لعنة الله ثلاث كرات على من غير او بدل شيئا من ذلك
ففرح الناس بذلك غاية الفرح ثم ان السلطان قال للامير
خيربك اريد ان اعلم قدر مال مصر وما يتجمع منها في كل سنة قال
يا مولانا الخنكار ما يعلم ذلك ولا يعرفه الا القاضي ابو بكر بن
الجيعان فامر باحضاره فلما حضر قال له خيربك مولانا السلطان
يريد ان تخبره بما يتجمد من مال مصر في كل سنة على وجه مختصر
فقال له القاضي في غد ان شاء الله تعالى آتيه بخبر ذلك ثم انصرف
ورفع الدفاتر التي قد كان جاء بها وجاء في ثاني يوم وقد كتب جملة
خراج مصر على ظفره فاعجب السلطان ذلك وقال له بارك الله فيك
خير القول ما قل ودل ثم ان السلطان امر بالرحيل من برانبابه وجاء
الى المقياس ونزل فيه ومعه جميع اكابر دولته واعيان اجناده
ثم ان السلطان خلع على شيخ العرب حماد بن خبير شيخ عرب غزالة
باقليم الجيزة وجاء اليه الامير علي بن عمر شيخ هوارة فخلع عليه
بامرية الصعيد بمدينة جرجا وخلع على علم الدين شيخ بني عدى
وكتب لهم التواقيع بذلك وخلع عليهم وانصرفوا قال المؤرخ
ومن غريب ما جرى ان الامير قانصوه العادلي لما سمع بشنق
السلطان طومانباي وقتل الامير شربك كان عليه ذلك اليوم
من اشئم الايام وهجر الطعام والمنام ثم انه حدثت نفسه بان يتحيل
حيلة على قتل السلطان سليم فسهر ذات ليلة وهو متفكر فيما يفعله
وكيف يتوصل الى ما اراد فدبر في نفسه ان يلبس مثل العرب
ويأخذ معه جماعة من اهل القوة وينزل الى مركب ليلا ويسير
بها الى تحت المقياس ويجعل له سلم تسليم ويصعد عليه وينزل
الى داخل المقياس ويقتل السلطان سليما ويأخذ بثار قومه وما
علم ان الحي ما له قاتل ثم انه فعل ذلك حتى وصل الى الطيارة التي
فوق المقياس وهي محل السلطان فوجد الحرس مستيقظين وسمع

حديثهم فكمن في محل وقال في نفسه اصبر لهم الى ان يناموا فلما
سكت حسهم ظن انهم قد ناموا وكانوا يقظا وبون الحرس بالساعة
فقام ومشى الى ان قرب منهم ففطنوا به ورأوه بالعين فقاموا
اليه يتصايحون بالسيوف مسرعين في طلبه فرجع هاربا الى
الموضع الذي جاء منه وفيه سلم التسليم فما ساعه الا ان رمى
نفسه من فوق الشراريف الى البحر وارخى في التيار وتبعته
جماعته بالقارب فحصلوه وهو عائم فاطلعوه وانحدر وا به
ولم يبلغ مقصوده واما السلطان سليم فانه قام مرعوبا من نومه
لما سمع الضجة وطل من اعلى القصر ونظره وهو عائم في الماء
فامرهم بالرمي عليه بالبندق فلم يصبه شئ من ذلك الى ان
وصل الى ساحل بولاق وبقي مقهورا لانه لم يبلغ مقصوده
وكان في علم الله ان الذي بقي من عمر السلطان سليم ثلاث سنوات
فانه مات بالقسطنطينية في سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن
بها ومن الغرائب ان مدفنه لا يذهب اليه احد ولا يزوره الا النادر
فانه كان سفاكا للدماء لا يتوقف في قتل احد واما تربة والده
المرحوم السلطان ابا يزيد فانها نيرة عامرة موهلة للناس لا ينقطعون
عنه الا ان كان بعد صلاة العشاء فانه كان عبدا صالحا لا يشك
في ولايته وكان بينه وبين المرحوم السلطان قايتباى مودة
عظيمة ويهادون بعضهم بعضا في كل عام ويرسلون لبعضهم
السلام ويطلبون من بعضهم الدعاء الى ان توفاهم الله تعالى
تغمدهم الله برحمته ورضوانه واعجب من ذلك ان خيربك
ملك الامراء بمصر لما ان اقامه السلطان سليم على ملك مصر الى ان
يموت فامر بعمل تربة لنفسه وجعلها في باب الوزير على طريق
القلعة يمر عليها الباشات والصناجق والاغوات عند ذهابهم
وايابهم فلم يلتفت اليه منهم احد ولا يترحم عليه ولا يقرا له الفاتحة

مع انها نزهة مليحة المنظر ومع ذلك صد الله عنه قلوب الخلق لانه
كان سببا في هلاك الوف مؤلفة من الجراكسة والاروام والعرب
وغيرهم فان بعض الحذاق من المؤرخين قاسوا وقعة الجراكسة
مع السلطان سليم على وقعة تيمورلنك الذى اخرب حلب والشام
وقتل اهلها وعساكرها فوجدوها قدرها خمسة عشر كرة تقريبا
قال المؤرخ ثم ان السلطان سليما اشتهى خاطره ان يذهب الى
الاسكندرية ويتفرج عليها ويحيط بها علما فخرج فى خمسمائة نفس
من اخصاء عسكره وانحدر فى البحر فرأى مدينة فوة ورشيد
وغيرهما من البلاد ورأى تلك الارزاق ورأى الخيرات التى كانت
فى ايام الجراكسة فتعجب من ذلك وقال ان هذا الاقليم لا نظير له
فى كثرة الارزاق والخيرات ثم انحدر الى رشيد واحاط بها علما
ثم طلع فى البر الى الاسكندرية واقام بها ثلاثة ايام ثم رجع
ونزل فى المقياس وبقى كل ليلة ينزل فى الذهبية التى عمرها السلطان
قانصوه الغورى وكانت كلها منقوشة بماء الذهب كالاسقفة
التى فى الغورية وكانت لها بهجة عظيمة وكان الحاج عبد القادر
الاعرج هو الريس الذى يمسك الدفة ويقلع به ويحدر فاتفق
انه فى بعض الليالى اراد السلطان الطلوع من الذهبية الى
المقياس فلما قاربت الذهبية سلالم المقياس هم السلطان ان
يطلع فلم تعمل رجله الى درج المقياس وكاد ان يسقط بين
الدرج والذهبية والحاج عبد القادر واقف بحذائه ليطلعه
فلما رآه هوى الى البحر وكان بيلاحق بر فما حصل الا عنقه فامسكه
وجذبه الى الذهبية من الماء فساعده عمر السلطان فاطلعه الى
المركب وقد غاب صوابه وايقن بالغرق فلما ردت اليه روحه
قال له تمن على يا عبد القادر فقال تمنيت ان اكون معرف
البحرين فكتب له السلطان ان يأكلها الى الممات من غير ان يعمل منها

الى

الى الديوان شئ مطلقا وان يكون مسموع الكلمة منقام الحرمة
الى ان يموت واعطاه عطايا الملوك ولما اصبح السلطان أمر
بالرحيل من المقياس فانزله خيربك فى بيت رابية الذى على بركة
الفيل فانه ليس له نظير فى حسن بنائه ومنظره فاقام بها اياما
ثم امر بالرحيل الى القسطنطينية وكان من امراء الصناجق امير
سكن فى قناطر السباع فهجم عليه طائفة من الينكجرية فقتلوه
فوصل خبره الى السلطان فقبض عليهم وقتلوهم عن اخرهم وكانوا
نحو العشرين رجلا ثم ان السلطان سليما قبل الرحيل بيوم خلع على
خيربك نيابة مصر ولقبه ملك الامراء وابقى عنده خمسة الاف
يكنجريا ماعدى العسكر الخيالة وقال له اعطيتك هذه المملكة
اقطاعا لك الى ان تموت وكذلك فعل بقانبردى الغزالى فاعطاه
الشام اقطاعا له الى ان يموت ثم ان السلطان امر خيربك بأنه كل
من جاءه من الجراكسة الهاربين وطلب منه الامان يقبله ويبقيه
على منصبه واوصاه واكد عليه فى ضبط البلاد والانصاف بين
العباد ثم ان السلطان انصرف وامر بالسفر فلما سمعت الجراكسة
بذلك اطمأنت قلوبهم فجاء الامير رزمك الناشف والامير بردبك
يكيد على بن سودون الدوادارى وغيرهم ممن كانوا هاربين
مختفين وطلبوا الامان من خيربك فأمنهم واستقل خيربك بملك
مصر يتصرف فيها تصرف الملوك واما سيدى محمد بن الغورى فانه
اخذه السلطان سليم معه الى بلاد الروم وكذلك الامير قانصوه
العادلى فان السلطان سليما لما ان جاءه له قانصوه العادلى فى
المركب وطلع من على شراريف المقياس يريد ان يقتل السلطان
سليما كما تقدم وقد كان السلطان ارسل خلف خيربك وقال
له لابد وان تأتينى بخبر هذا الرجل الذى خاطر بنفسه وجاءنى
فى الليل ليقتلنى فاستقصى خيربك الخبر فقيل له هذا هو الامير

قانصوه العادلى فلما اخبر السلطان به قال له لابد وان تأتينى
به فقال له يبرز امرك بالامان فلعل ان يطيع ويدخل فى يدنا
فحلف السلطان ايمانا مغلظة انه ان قابله بالامان فعليه امان
الله ورسوله ولخائن يخونه الله تعالى فارسل له خيربك من
استعطف بخاطره وقال له ان السلطان قد ندم على ما فعل من قتل
طومانباى وشربك وما كان قصد السلطان شيأ من ذلك وانما
عنادهم هو الذى اوجب ذلك فانهم لو اطاعوه من الاول وجعلوا
السكة والخطبة باسمه لكف عنهم ورجع الى بلاده وابقاهم
على بلادهم ولكن جرى القلم بما به الاله حكم وقد تم الامر وما بقى
لا شر ولا حرب والاولى والاحسن ان تقابل السلطان وتأمن على
نفسك ومالك وعيالك فلما سمع الامير قانصوه العادلى ذلك
الكلام طاب خاطره للمقابلة وقال فى نفسه اما الموت فلا بد منه
ومن لم يمت بالسيف مات بغيره فتوكل على الله تعالى وسلم امره لله
وقدم على خيربك ليلا فلما اجتمع به خيربك تلقاه باحسن ملتقى
وقال له ما بقى كلام وقد مضى ما مضى وتكلم معه كلاما كثيرا وضمن
له من السلطان الامان واعلمه بان السلطان لا يخالف خيربك فى
شئ من ذلك فانه كان يعتقد محبته له ولما طلع النهار ركب خيربك
وقانصوه العادلى وذهبا الى السلطان سليم فلما وقف بين
يديه نظر اليه وتأمله وقال له ما اسمك فقال له اسمى قانصوه
العادلى فقال انت الذى جئتنى فى الليل وانا فى المقياس قال نعم
قال صف لى كيف صنعت فوصف له جميع ما صنعه فقال له
السلطان لاى شئ فعلت ذلك قال له قانصوه العادلى اما تدرى
ما صنعت انت وما فعلت فى سلطاننا وما اهلكت من عساكرنا وما
اخربت من ديارنا وما ايتمت من اطفالنا وما هتكت من حريمنا وما
اخذت من اموالنا وما فعلت معنا من فعل لم يفعله احد من قبلك

وعين

ونحن مسلمون مؤمنون موحدون ونحماة الدين ونقرأ كلام رب
العالمين سنيون سنويون فما ذنبنا قال له السلطان سليم
يا قانصوه والله ما كان هذا فى خاطرى من الاول ولا كان قصدى
شيأ من ذلك ابدا الا ان ملككم الذى هو قانصوه الغورى لما
ارسلت له وكاتبته وانا ذاهب الى قتال قزلباش الرافضى ارسل
لى جوابا ناقصا واغلظ فيه على ثم ارسلت له ثانيا لما ان بلغنى
منه ما كان يفعله بالناس من المضاررات والقتل فى الامراء
والاعيان فقلت له كف عن ذلك وانصف الناس من بعضهم
فان كل من كان خادما للحرمين الشريفين لا يكون الا عادلا منصفا
عاملا بالكتاب والسنة متمسكا بالشريعة فارسل لى جوابا بانه
قادم باشراره فتوجهت اليه وجردت عليه وقد نصرنى الله
تعالى عليه ورمى كيده فى نحره وانظر كيف القى الله تعالى فيكم
الفتنة كيف كنتم تخونون بعضكم وتفسدون فكان ذلك سببا
لزوال ملككم ولكن هذا ليس هو بقدرتى ولا بقدرتكم ولكن
هذا بتقدير الله تعالى وقد تم الامر على ذلك ولكن يا قانصوه
قد عطف الله قلبى عليك وقد امنتك على نفسك ومالك وعيالك
ولا بقى يحصل لك منى اذية ابدا فقبل الارض ودعى للسلطان
واعتذر له بانه ما جا له فى تلك الليلة الا لشدة ما حصل له من
القهر فيما تقدم ثم ان السلطان خيره فى ان يقيم فى مصر معززا
مكرما او يذهب معه الى بلاده فاختار الذهاب معه محبة
فى ابن استاذه سيدى محمد بن الغورى فأخذه السلطان سليم
معه وامر عسكره باكرامه وبقى السلطان فى كل يوم يطلبه
ويتحدث معه فى الطريق ويعجبه كلامه وفصاحته واجوبته
ومعرفته وفضله وشجاعته وكان السلطان سليم فى كل حين
يامره بان يلعب بين يديه بالرمح والسيف وانداب الحرب ويعجبه

ذلك وكان يقول لعسكره انظروا هل فيكم من احد يعرف يعمل
شيئا من ذلك فقامت نفس يونس باشا الذى هو الوزير الاعظم
فأغلظ فى الكلام على السلطان وقال له من بعض قولهما الذى
فعلته اخذت البلاد من الجراكسة ثم اعطيتها لهم ثانيا وعاديتهم
وقتلتهم ثم صافيتهم فما هذا الرأى فلو عرفنا ذلك ما جئنا
معك ولا اطعناك فى شئ من ذلك فقامت نفس السلطان من
هذا الكلام فامر بضرب عنقه فى الوقت وقتل غالب خصائصه
تبعا له ثم هرب ابن يونس باشا وبعض جماعته الى مصر فقبض
عليهم خيربك ثم ارسلهم الى السلطان سليم فقتل الجميع ولما
وصل الى دمشق خلع على قانبردى الغزالى واعطاه الشام اقطاعا
الى ان يموت لا يؤخذ منه من مالها ولا الدرهم الواحد ثم سار
الى القسطنطينية وامر بالزينة فامعنت اهل بلاد الروم فى
ذلك فاقام بها الى سنة ست وعشرين وتسعمائة ودفن فى
مدفنه الذى كان عمره فى حال حياته بمدينة القسطنطينية
وكانت وفاته فى سادس شوال فكانت مدة سلطنته ثمان
سنين وثمانية اشهر وتسعة ايام ثم آل الملك لولده السلطان
سليمان وكان من الملوك العادلة رحمة الله عليه ومكث فى الملك
نحو ثمانية واربعين سنة وشهور لا يختل له نظام ابدا وكان
ملكا كريما عادلا فاضلا ذا هيبة ووقار

ذكر خروج الغزالى نائب الشام وسلطنته بها

قال فلما بلغ قانبردى الغزالى موت السلطان سليم وقد تولى
ابنه السلطان سليمان وهو شاب صغير طمعت نفسه الخبيثة فى
ان يتسلطن فى الشام ويعيد الملك الى الجراكسة كما كان فى الاول
ويكون هو السلطان وتعلقت اماله بالمحال فاخبر خصائصه بما فى
نفسه فقالوا له ليس لنا قدرة على ذلك ونحن فئة قليلة ولكن

ارسل

ارسل الى خيربك صاحب مصر اعلمه بذلك فان وافقك على ان
تفعل ما قلته فافعل والا فلا قدرة لك على عسكر الروم وكثرتهم
ونيرانهم فهل نسيت ما تقدم فقال لهم انما كان ذلك من
السلطان سليم وانما هذا ولد ليس له قدرة على فعل شي من
ذلك ولا اظنه يتم سنة فى الملك وما علم انه يقيم فى الملك
ما يقرب من خمسين عاما ثم ارسل اعلم خيربك بما فى ضميره
فارسل له خيربك جوابا يحذره انه لا يفعل شيأ من ذلك
ويقول له اما يرضيك اقليم الشام تتصرف فيه تصرف الملوك
فاياك ثم اياك ان تتفوه بشى من ذلك فلم يقبل من خيربك
وسولت له نفسه الخبيثة بأن يتسلطن وارسل الى خيربك
ثانيا يقول له ان لم تطعنى على ذلك والا جردت عليك وحاربتك
اما بى واما بك فلما رأى خيربك منه الجد ارسل يخادعه فى الكلام
ويقول له ان كان ولا بد وانت معول على ذلك اذهب الى حلب
وخذها فان ملكتها فانا مساعد لك فيما تقدم وموافق لك على
ما تقول ولما جاء الجواب له بذلك فرح به وارسل خلف سيدى
محمد بن الامير قرقماس وقال له انظر كتابة الامير خيربك
ملك الامراء الذى تقول انه لا يوافق على شئ من ذلك فقال
له سيدى محمد والله انى لم اصدق شيأ من ذلك وانما خادعك
بهذا الكلام لما رأى منك الجد ولكن ان قبلت رأيى اترك هذا
الامر عن بالك واقعد فى حالك فقال له الغزالى الذى ظهر لى
منك انك رجل ابن ناس وتربية مزين فى الدلال اقعد لى انت
فى الشام واحفظ لى البلد الى ان ارجع اليك وتنظر الرجال فقال
له ها انا قاعد لك هنا واذهب حتى انظر كيف تصنع وما
اخوفنى عليك ثم ان الغزالى جرد على مدينة حلب ونفق له
عساكر من كل جنس من عرب ومن جركس ومن كرد ومن دروز

ومن سفل العالم وممن لاخير فيه وخرج من دمشق في ضجة
عظيمة من شرار الناس وممن لا يرتجي خيره ولما وصلت الاخبار
الى نائب حلب وكان اميرا من صناجق السلطان سليم ورويا
لا قدرة له على تلك الجموع فما ساعه الا ان كتب بذلك كتابا
وارسله مع عشرة جاوشية الى السلطان سليمان بان يرسل
له عسكرا يرد الغزالي والا اخذت حلب من يدي وها انا
محاصر الى ان يريد الله بامر يريده فعند ذلك امر السلطان سليمان
اياس باشا الذي كان اغاة الينكجرية مع السلطان سليم لما أخذ
مصر من الجراكسة وايضا له معرفة تامة بالغزالي وخيربك
من ذلك العهد فخرج من مدينة اسلانبول قاصدا الى مدينة
حلب وأخذ خمسة آلاف من الينكجرية وعشرة آلاف من الاسباهية
ومن الضربزانات والات الحرب شيئا يفوق الوصف هذا ما
كان من امر اياس باشا واما الغزالي فانه كان قبل خروجه من
دمشق الشام منع الدعاء للسلطان سليمان في الخطبة وامر
بالدعاء له وايضا جعل السكة باسمه وتسلطن واطاعته
العساكر واهل الشام وخطب له على منابرها وامر بالزينة
فزينت له زينة لم يعهد مثلها مدة سبعة ايام ثم امر بالتبريز
الى مدينة حلب كما تقدم ولما وصل اليها وجد ابوابها قد قفلت
وطلعت الناس على سورها فلما قرب منها رموا عليه بالمدافع
والاحجار فامر بالاقامة لاجل ان يحاصرها فمكث ثلاثة اشهر
ولم يقدر على اخذها فدخل عليه الشتاء واشتد البرد فما سعه
الا الرحيل عنها ونوى انه ان جاء الصيف يرجع اليها ولا يرجع
حتى ياخذها طيبة او غصيبة ثم امر بالرحيل فاخذ عساكر
حلب واهلها في شتمه وسبه ولعنه وهو يسمعهم ويسمع
كلامهم وصياحهم وضحكهم عليه فرجع مخزيا مشتوما مطرودا

فلما وصل الى دمشق تفرقت تلك الجموع الى بلادهم وقد دخل
عليهم الشتاء وقاسوا من البرد والمطر ما لا يوصف واما الغزالي
فانه ضاق صدره وجاءته الاخبار بان باشت حلب قد كاتب
السلطان سليمان واخبره بما فعلت وان عساكر الروم قد تمت
عليك مع اياس اغا وما هم منتظرون الا ذهاب الشتاء ودخول
الصيف ويأتون اليك في عسكر يسد الارض فانظر كيف
تصنع فان امكنك الهروب فاهرب وكان المرسل له هذا الخبر
رجلا من اصحابه من اهل حلب وسفه رأيه فعند ذلك اضطرب
حال الغزالي وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم وكتم ذلك
في سره وبقي حيران في نفسه كيف يصنع ان هرب ما يسهل
عليه ترك البلاد وان اقام لا قدرة له على ملاقاة الروم وقد
تشتتت منه تلك الجموع التي كان جمعها وذهبت الى بلادها
وايضا انه كان قبل ذلك لما ان اراد ان يتسلطن دبر حيلة —
وطلعت بيده وهو انه امر بعمل مولد وباشر في عمله وامر
بان يحضره جميع عسكر دمشق الذين كانوا من اتباع السلطان سليم
وابقاهم في دمشق مع قانبردي الغزالي من الصباهية والاغوات
واليكنجرية وغيرهم فلما اجتمعوا عنده مد لهم سماطا طويلا
لم يعمل مثله احد وجلست الاعيان في اعلى السماط ثم من دونهم
بالترتيب الى اخر السماط فالتهوا في الاكل وكانت مماليكه واتباعه
واقفين خلف الذين يأكلون على السماط وكل واحد منهم سيفه
تحت ثيابه وهم يتعاطون الخدمة فعند ذلك اشار لهم فحطوا
ايديهم في الاروام الذين على السماط فما شعروا الا ورؤسهم
طائرة فوقعت رؤسهم في الطعام فلم ينج منهم احد فقتلوهم
اجمعين وصار الطعام كله رؤسا وتلف الطعام من كثرة
الدماء والقتلى فامر باخراجهم ورميهم خارج دمشق فاكلتهم

الذئاب والحداة والغربان ولما فعل ذلك صفت له دمشق
ولم يبق عنده من يعارضه فيما يفعله فعند ذلك تسلطن
كما تقدم ولا نزال فى هم وغم حتى فرغ الشتاء ودفئت الدنيا
فجاءته الاخبار بأن اياس باشا قادم عليك فى عساكر لاتحصى
فازداد غما الى غمه وامر بالخروج الى ملاقاة العساكر وقال
اما يحيى واما يجتهم ولكنه ندم على ما فعل غاية الندم حيث
لاينفعه الندم وذلك من الحمق فان الاحمق يسعى فى هلاك
نفسه وهو لايشعر واما اياس باشا فانه لما وصل الى حلب
خرج اليه نائب حلب وقابله واخبره بما فعل من قفل ابواب
البلد وانه رمى على الغزالى من اعلى الصور وانه اقام محاصرا
لهم ثلاثة اشهر ثم دخل عليه الشتاء فرجع الى دمشق وذكر
له جميع ما وقع فشكره اياس باشا على ما فعل وخلع عليه وعلى
اغاة اليكنجرية الذين كانوا بحلب ثم قصد دمشق والتم عليه
عساكر كثيرة لاتحصى فانه بقى كلما دخل مدينة اخذ منها جماعة
فصار فى جيش عظيم فلما وصل الى ظاهر دمشق ارسل جاويشا
بكتاب الى قانبردى الغزالى بأن يتأهب للحرب والقتال والطعن
والنزال وينظر ما تفعله الابطال واخذ يوبخه ويعيط عليه
فى ذلك ومن جملة ما قال له فيه انه لو كان فيك خير كانت
لابنا جنسك فالذى ما فيه خير لجنسه كيف يكون فيه خير
لغير جنسه ياخائن يا فاجر يا غدار يا مكار واخذ يسبه سبا
مبرحا ويسود وجهه ويلعنه ويقول له انما هذه نيتك الخبيثة
انقلبت عليك فسوف ترى صنع الله فى غد ان شاء الله تعالى
فلما وصل ذلك الكتاب للغزالى وقرأه ازداد غما على غمه وضاق
صدره ولم ينم تلك الليلة ولا طرق النوم جفنه وحسن زوال
النعمة عنه ولم تبق له حيلة يحتال بها ابدا فما ساعه الا ان

تأهب للقتال اما له واما عليه وقد تحقق انه لاخلاص له من
ذلك وانه قد خسر خسرانا مبينا ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك
لاحد من خلق الله تعالى وكتم ما عنده ولما طلع النهار امر باقامة
الحرب وقد صفت عساكره ودق طبله ووقف بنفسه يرتب
الميمنة والميسرة فلما تم ذلك واذا بعساكر الروم قد اقبلت
صفوفا صفوفا ووقف اياس باشا والتحم القتال فامر اياس
باشا الرماة انهم لا يرمون حتى يأذن لهم في الرمي فحطم الغزالي
على عسكر الروم حطمة واحدة فشتتهم بها وعزقهم كل ممزق
وصار يقاتل قتال من ايس من الحياة فقتل من الروم مقتلة
عظيمة فلما عاين اياس باشا ذلك امر الرماة بان ترمي بالبندق
والمدافع والضربزانات فما شعر الغزالي الا والدنيا قد انقلبت
والقيامة قد قامت وانطبق الجو من الدخان والغبار فما كان
الا ساعة واحدة وقد ذهبت تلك العساكر والجموع وما سلم
منهم الا طويل العمر وبقي الغزالي واقفا لا يعرف كيف يصنع
ولا اين يذهب فالتفت فوجد صنجقه واقفا ليس عنده احد
فجاء الى حامل الصنجق وكان شابا شجاعا اسمه علي بالي رباه الغزالي
عنده من صغره ولكنه ليس جركسيا فلما رآه الغزالي شجاعا قربه
اليه حتى جعله حاملا لوائه وكان يصرخ ويقول ان عليا هذا
عندي اعز من ولدي فلما رآه واقفا والصنجق بيده قال له
يا ولدي الى متى انت تقف وعساكرنا كلهم هلكوا وتشتتوا
قال له والى اين اذهب روحي قبل روحك لا افارقك حتى
تذهب روحي فشكره الغزالي على ذلك وقال له يا ولدي
ما بقي لنا غير الفرار من هذا العسكر الجرار فقال له والله يا سيدي
ما عملت فينا خيرا وما ضرك لو كنت باقيا على ما انت عليه آمنا على
نفسك وانت كنت سلطانا مخفيا سعيت في هلاك نفسك واهلكتنا

فى جرتك قال ما كنت اظن ان الامر كذلك وان العساكر تفر منى
وينقلب الامر فقال له على ان العارفين قالوا من لم يحسب العواقب
ما الدهر له بصاحب فقال يا ولدى ما دام هذا الدخان
والغبار قائما اقلع هذا الصنجق من على رمحه وضعه فى مخلاته
وارم الرمح وادفن المخلاة فى هذا الكوم العالى ودعنا ننزل
عن خيلنا ونقلع لبسنا ونغير حالتنا وننجوا بأنفسنا فاذا
رأونا لا يعرفونا ثم ان الغزالى نزل عن فرسه وخلع ما عليه
من اللبس والبولاد الذى لا نظير له ودفنه فى التراب وبقى بطاق
القميص ورأسه مكشوفة كأنه قرندلى اذا رآه من يعرفه لا يعرفه
ولطخ وجهه بالتراب وصار كأنه كان مدفونا فى التراب
وطلع واما على بالى فلما رأى ذلك قال له والله يا سيدى ليس
عندك من الرأى شئ فاننا لو كنا على ظهور خيلنا كنا هزينا وحمينا
انفسنا حتى نخلص من محل الحرب ثم ننزل على بعد ونختفى فى
مكان لا يعرفنا احد واما نزولنا فى محل المعركة فلا فائدة فيه ثم
ان عليا ركب فرسه ثانيا واخذ عدته وهم بالهروب فقال له
الغزالى هكذا يا على تذهب وتخلينى للعدو فقال له وما الذى
اصنع انا قلت لك افعل بنا هذه الفعال القبيحة التى لا يفعلها
المجانين فبينما هم فى هذه الحالة الا وقد انجلى الدخان يسيرا
ونظر الناس بعضهم بعضا واذا بمنادى اياس باشا ينادى كل
من جاءنا بالغزالى او برأسه او دلنا عليه او على مكانه اعطيناه
جميع ما يتمناه فدكس على بفرسه الى نحو الميدان واذا بهم
طائفة من السلحدارية واليكنجرية فلما وصل اليهم قال لهم أنا
ادلكم على موضعه فقالوا له اين هو فقال لهم أنا اعرف محله
وهو بالقرب منكم ولكن ما ادلكم عليه حتى تعاهدونى على ما اريد
قالوا له لك ذلك قال اريد ان اكون امير صنجق فانى أنا الذى

حامل صنجقه وأنا من اولاد الشام ونحن طائعون للسلطان
سليم باطنا وكذلك سيدى محمد بن قرقماش فقال له الاغا
لك منا جميع ما تريد ان دللتنا عليه فقال له اتبعونى وقصدوا
نحو الغزالى وهو واقف يبرم كما تبرم القرندلية وهو يقول
هو هو وقصده بذلك حيلة منه لئلا يعرفوه فقال لهم على هو
هذاك القرندلى فهو الغزالى فقالوا له انت تتمسخر بنا يا فاعل يا تارك
واخذوا يشتمونه ويسبونه وهموا بقتله فقال لهم امهلوا على أنا
بين ايديكم ان لم يكن هو الغزالى والا فراسى عوض كلامى فقالوا
له ان الغزالى كان بآلة الحرب من الحديد قال نعم وحكى لهم ما فعل
فجاؤا اليه واحاطوا به ومسكوه وهو يهدر كالمجذوب ويقول هو
هو هو فقالوا له انت الغزالى فقال لهم بعد ان قبضوا عليه وارادوا
قتله انا رجل درويش عريان ومن اين لى ان اكون كالغزالى فتحيروا
فى امره وعلى بالى يحلف ويقول لا تصدقوه ولكن تعالوا انا ادلكم على
لبسه وفرسه وسلاحه انهم على ذلك الكوم العالى فأخذهم وذهب
بهم اليه واذا بملبوسه كله وصنجقه مدفونان فى التراب فطلعوه
ورأوه فعرفوه ورأوا فرسه واقفا عند ذلك المكان وهو يبكى
ويقول انا رجل درويش كيف تصدقوا هذا الكذاب انظروا الى
حالى فلما تحيروا فى امره قال لهم على انا اقطع راسه واذهب بها الى
اياس باشا فانه يعرفه فاذا لم يكن هو والا فراسى عوض عن راسه
وجذب سيفه وضرب رأسه اطاحها واخذها فى مخلاته وقال
انا وانتم الى اياس باشا واخذوا معهم ملبوسه وفرسه فلما وقفوا
بين يدى اياس باشا تقدم ذلك الاغا واخبر اياس باشا بما وقع
فقال لهم هاتوا الراس حتى انظرها فانى اعرفه غاية المعرفة فوضعوها
بين يديه فتأملها وقال هذه راس الغزالى بلا شك ثم قال لهم اين الذى دلكم
عليه فقالوا له هذا الرجل فسأله عن حاله فاخبره بجميع ما فعل الغزالى فعند ذلك

خلع عليه خلعة عظيمة وعمله امير صنجق وكذلك السيد محمد بن قرقماس ومن
اغرب ما وقع ان في يوم قتل الغزالي وقف رجل على باب الجامع الازهر
ونادى باعلى صوته يا جماعة ان الغزالي قتل اليوم فاذا لم تصدقوا فاكتبوا تاريخ
هذا اليوم فكان كما قال ذكر تاريخ قطع رأس الغزالي الخائن
فما مضى الا ايام قليلة حتى جاءت الاولاقية من عند اياس باشا الى
خيربك ملك مصر بما وقع وان الغزالي قطعت رأسه في اليوم الفلاني
وكان العاشر من ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وتسعمائة
ثم ان اياس باشا ارسل رأس الغزالي الى السلطان سليمان مع الاولاقية
فزينت البلاد وحصل السرور للسلطان ثم ارسل السلطان الجواب
لاياس باشا وشكره على ما فعل وامره بان لا يمكن العسكر من ايذاء
احد من الرعايا ويأمره باقامة الحدود على الوجه الشرعي وان ينصف
في احكامه الى آخره واما خيربك فانه لما بلغه قتل الغزالي تكدر
عيشه واوصى واعتق مماليكه فقالت زوجته تعيش رأسك
وتبقى وكانت تسمى خوند مصر بيك وكان قد تزوجها قبله الملك
الناصر محمد بن قايتباي وبقيت عازبة مدة سلطنة الغوري
الى ان تولى خيربك فتزوجها فانه لم يكن في النساء اسخى منها في
عصرها وكانت خازندارتها تسمى دولتباي وكانت خوند مصر
بيك كاتبة فقال لها ان بين عمري وعمره مدة سنة فكان كذلك
فما تم العام الا وقد مات خيربك بفرخ الجهر ودفن في تربته التي
عمرها في طريق القلعة عند باب الوزير وهي المعروفة الآن
بالخيربكية وكانت الناس تسمع صراخه في القبر وهو يصيح حتى
ضجت الناس من ذلك وكان موته عبرة لمن اعتبر وهكذا الدنيا
تفعل باهلها فهنيئا لمن اعرض عنها وقنع منها باليسير وترك الكثير
عن باله فقبحا لها من دنيا غدارة غرارة وكفى ذما لها قوله سبحانه
وتعالى فلا تغرنكم الحياة الدنيا الآية ثم ان السلطان سليمان رحمه

الله عليه شرع فى التوجه الى الغزو فى سبيل الله لاخذ جزيرة
رودس فانه قد كان قوى بأسهم وزاد فسادهم وارتفعت
رؤسهم بعد موت السلطان سليم وفرحوا بموته فرحا
شديدا وطمعوا فى اخذ بلاد المسلمين وحدثتهم نفوسهم
الخبيثة بالاقدرة لهم عليه وظنوا ان ولده السلطان
سليمان لاقدرة له على حرب ولاغزو فاظهر الله تعالى من
العدل والانصاف والخير ما يفوق الوصف فرحمه الله تعالى
ورحم اجداده الكرام وابناءه الطاهرين والسلام ثم انه
خرج بنفسه الى اخذ رودس ففتح الله تعالى عليه باخذها
وقد كان السلطان ارسل لخيربك ملك الامراء بمصر راية العقاب
وهى من رايات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الانبيا
والمرسلين فارسل من عسكر مصر ومن شباب مصر وجهزهم
فى نحو العشرين مركبا وجد السلطان سليمان فى محاصرة رودس
ولما دخلوا على رودس وجدوا العسكر مطمئنين ولما بلغ
السلطان سليمان قدوم العساكر امرهم بالدخول وكان قد
نصره الله تعالى على ايديهم ولما حصل النصر امر اهل رودس بعمل
مهرجان وزينت البلدة احد عشر يوما ولما انقضى المهرجان انعم
على العسكر وامرهم بالانصراف الى اماكنهم والله سبحانه وتعالى
اعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه
وسلم قد تم طبع هذا الكتاب المستطاب
بعون الله الملك الوهاب فى اوائل
شهر ربيع الاخر سنة ١٢٧٨ انهاها
الله بخير على المسلمين آمين
والحمد لله وحده